الكتاب الثمانون

من يستحق أن يكون الأعظم!؟

للقس صموئيل مشرقي

الكتاب الثمانون

من يستحق ان يكون الاعظم!؟

WHO DESERVES TO BE THE GREATEST?

البحث الذى يكشف عن حقيقة شخصية المسيح
ويبين لماذا هو الأعظم

بقلم
القس صموئيل مشرقى رزق

يناير ١٩٩٣

صدر عن الكنيسة المركزية لمجمع الله الخمسينى
٨ ش أحمد باشا كمال - بجزيرة بدران شبرا - مصر
ت : ٧٧٥٦٧٦

تقديـــم

لاشك أن أقوى شيء فى العالم هو مجرد «فكرة» بمقدار عظمتها يكون تأثيرها فى الآخرين.. لان من وراءها العقل الذى يعتمد كلية على التصورات التى بداخله!!

وعندما ننظر إلى القرون الماضية نجد أن الفكرة التى سيطرت على العقول أكثر من أى شيء آخر هى فكرة «وجود الله» ... فهى التى استحوذت على كل طاقات التفكير البشرى حتى ان مجرد اغفالها يعنى فقدان معنى الحياة نفسها ...

ولقد وجد البشر امتداداً لهذه الفكرة أن أكثر الشخصيات التى دار حولها جدل كبير ونقاش جاد لم يكن له من نهاية هى شخصية «يسوع المسيح» وأياً يكون الموقف منه، فإنه لم يكن بالإمكان إنكار وجوده أو تجاهله على مدى العصور المتوالية، وقد يرى فيه بعضهم تجاوزات من وجهة نظرهم، أرادوا بسببها أن يخضعوه لاقتراحات نقدهم لها، كما أرادوا إجراء المقارنات بينها وبين غيرها من الشخصيات، وهم بذلك قد سلكوا طريق العقل متمردين به على الوحى وهيهات أن ينفعهم ذلك بشيء... إذ أنهم بما يقدمونه من مناقشات مضنية يشغلون بها الناس دون جدوى ، لأن حقائق اللاهوت المعلنة فى الكتاب المقدس لا يتسنى قبولها إلا بالإيمان ، دون أن يصل العقل إلى الإحاطة بها أو إخضاعها لسيطرته!!

ولكننا من وجه آخر وإن كنا لا نعرف الله معرفته بنفسه، إلا انه من واجبنا الإلتزام بفحص ما أعلنه عن ذاته فى الوحى المكتوب، وذلك لإستجلاء مضمونه عن طريق البحث النزيه إبتغاء الوقوف على الحقيقة – وهى بنت البحث بإقرار الجميع – وسبيلنا فى ذلك التزام الدقة المتناهية فى استجلاء معانى النصوص دون تلاعب بها بانتزاعها من مواضعها أو تأويلها على غير معناها بكلام باطل لا يقام له وزن بل هو مخالف للحقيقة ومهلك لأصحابه...

ولذلك كان لابد من تحرى الحقيقة واستجلاء غوامضها لمواجهة الانحرافات التى يرتد بها أصحابها عن الحق، وكذلك الهجمات الشرسة التى يواجهها بعضهم لمساندة الباطل ومحاولة إعلائه على الحق وهيهات أن تجديهم محاولاتهم نفعاً...

ولقد كان من توفيق الله لنا وفضله علينا بعد ما قدمناه فى كتابنا الثامن والسبعون بعنوان «من هو يسوع المسيح» أن نخصص المؤتمر التعليمى الثالث والثلاثون المنعقد فى الأسبوع

الأول من شهر أغسطس ١٩٩٢ لدراسة هذا الموضوع الحيوى الخطير ألا وهو: «من يستحق أن يكون الأعظم»!؟

هذا الموضوع يحتاج إليه أولاً المسيحيون لإستجلاء عقيدتهم فى المسيح ولكى يكونوا أيضاً مستعدين لأن يجيبوا من يسألهم عنها بجدارة واقتدار...

كما يحتاج إليه غير المسيحيين لأنهم يريدون أن يعرفوا حقيقة عقيدتنا فى السيد المسيح على الوجه الصحيح والأسانيد التى تقوم عليها ومصادرها لأنه وإن كانت الحقائق الدينية بطبيعتها من الأمور الواجب التسليم بها لكن هذا لا يمنع دور العقل من المعرفة لتمحيصها والإقرار بصحتها....

ولدينا من هذا القبيل سلسلة من الأدلة الموضوعية القاطعة أى التى تقطع الشك باليقين وتدمغ الحقيقة بالصدق التام الذى لا ترقى إليه الشبهات أيا كان نوعها...

ومن ثم فان هذا الكتاب – وهو بحث نادر يكاد يكون الأول من نوعه فى اللغة العربية – هو أعلى قمة فى علم مقارنة الأديان من حيث رأيها فى : «من يستحق أن يكون الأعظم»، وخاصة وأن تاريخها مشحون بالقادة والزعماء والأعلام والأبطال ، ويكشف هذا البحث الدقيق كيف أن يسوع المسيح – فى الواقع – هو الشخصية الوحيدة الفريدة بين هؤلاء جميعاً ... وهنا فى سطور هذا الكتاب النورانية نجد حجة البيان القاطعة عن تفرده هذا وكيف أنه «الأعظم» بلا منازع ، إذ يجعلنا نقف أمام شخصية لا يمكن أن تخضع للاقتراحات التى يقدمها البعض عنه على سبيل النقد الجائر الذى يخالف تماماً ما هى عليه بموجب اعلانات الوحى الإلهى عنها ...

ولذلك سيجد القارىء العزيز فى هذا البحث بطلان استنباطات العقل البشرى الشاردة عنه والتى اتجهت إلى آراء غير صحيحة عنه داخل المسيحية وخارجها فى الغرب والشرق على السواء!!

المؤلف

الفصل الأول

هو الأعظم لأنة بلا مثيل

«لأنه من فى السماء يعادل الرب. من يشبه الرب بين أبناء الله»
(مز ٨٩ : ٦)

«من مثل الرب إلهنا الساكن فى الأعالى» (مز ١١٣ :٥)

«اعلموا أن الرب هو الله. هو صنعنا وله نحن شعبه وغنم مرعاه»
(مز ١٢٠ :٣)

* * * *

* **أقوال الوحى عن عظمة المسيح:**

عند دراسة الموضوعات لابد من الرجوع إلى أقوال الوحى المدونة للوقوف على ما ورد بها فى شأن كل موضوع منها على حدته ...

وبالرجوع إلى هذه الأقوال فى موضوع «العظمة» نجد أن هذه الكلمة ومشتقاتها قد وردت فى الكتاب المقدس حوالى ٣٠٠ مرة، ٥٠ منها عن «الله» «والمسيح»: **بعضها يصف ذات الله لأن الله قد أقسم بذاته إذ لم يكن له أعظم يقسم به: «لأن الله أعظم من الإنسان»** وقد قيل فى وصف عظمته: «هوذا الله عظيم ولا نعرفه» إذ هو: «فاعل عظائم لا تفحص.. ولا تدركها»، **وقد وصف جوده بأنه الأعظم، وأعماله بأنها الأعظم، وهو عظيم القوة والقدرة وشعبه عظيم وأسمه عظيم وبذلك كانت مخاطبته بالقول: «يا الله الذى صنعت العظائم» وأيضاً «عظيم أنت وصانع عجائب» وكذلك «عظيم أنت وعظيم إسمك» وهو نفسه يقول: «أن إسمى عظيم بين الأمم» وأيضاً «لأنى أنا ملك عظيم» ووصف يوم المجىء القادم بأنه: «يوم الرب العظيم»**

وقد ورد اسم «الرب» و «الله» فى هذا المجال بحالة متساوية فى الأقوال: «أى إله عظيم مثل الله» و «لأن الرب إله عظيم» وأيضاً: «أنا الرب العظيم للخلاص» و «التفتوا إلىّ يا جميع أقاصى الأرض وأخلصوا لأنى أنا الله وليس آخر» ... ولذلك وصف تعظيمه هنا بالقول: «لأن مجد الرب عظيم» كما قيل فيه: «عظيم هو ربنا»، ومن ثم فإن الذين ينطقون بالروح الآن، إنما يتكلمون بعظائم الله – وقد وردت هذه العبارات فى التعبد بعظمته وهى: «يتعظم الرب» –

«يتعظم إلى أقاصى الأرض»، وأيضاً «أعظمك يارب» و «أعظمه بمجد» و«أعظم وأحمد ملك السماء» ومن بعد «عظموا الرب معى ولنُعَل إسمه معاً»

****

أما يسوع المسيح فقد اختص بالعبارات التالية التى سجلها الوحى عنه وهى:

«فهذا يكون عظيماً وابن العلى يدعى» و «هو وسيط لعهد أعظم» وجاء عنه: «وكان اسم الرب يسوع يتعظم» وأيضاً: «يتعظم المسيح فى جسدى» كما ورد عنه أن: «الرب أعظم من جميع الآلهة» بل وأيضاً «اسجدوا له يا جميع الآلهه» لذلك فقد ورد عنه أنه «أعظم من الهيكل» و«أعظم من سليمان» و «أعظم من يونان» و «أعظم من يوحنا» بل قيل عنه أيضاً: «صائراً أعظم من الملائكة»!!

وهذا هو الأساس الذى بنى عليه الوحى: «عظمة يسوع المسيح»، وهى نفسها عظمة الله التى ظهرت فيه، وهى لذلك عظمة واحدة لا تفريد فيها ولا تقسيم ... ومن ثم فإننا نرى هنا من بداية هذا التأمل جواباً على السؤال المطروح: «من يستحق أن يكون الأعظم؟» بأن الذى يستحق ذلك بلا منازع هو يسوع المسيح!!

****

ومن ثم فإن اسم «يسوع المسيح» هو الإسم الوحيد اللامع على مدار الزمن ولمعانه بلا نهاية ولذلك يستحيل على أحد من البشر أن يتجنبه أو يتجاهله، لأن عظمة شخصيته التى تحدث كل العصور لا يمكن تحديدها أو حصرها بأى نوع من التحدى لعظمتها أو التصدى لجوانبها الفريدة....

لقد ذاعت أسماء رجال عظماء فى هذا العالم، كانت لهم شهرتهم العظيمة وشخصياتهم المرموقة – لمعت أسماؤهم فى التاريخ، لكن لمعانها كان جزئياً ومحدوداً فى فترات وجودها ثم تنطفىء وتذهب إلى نهايتها، تعبر وتأتى الحلقات متتابعة وراء بعضها البعض – فلكل جيل رجاله وشخصياته البارزة – على أن الذين يأتون من بعد يغطون على من جاءوا من قبلهم، أما يسوع المسيح فإن حقيقته فائقة واسمه ممجد بالمجد الفائق الذى يختص به مما يفوق إدراك العقل، وهو كذلك رغم مواقف البشر المختلفة من نحوه...!!

ولذلك فإنه بالنسبة لكل مسيحى يعيش على وجه الأرض «المسيح هو الأعظم»، وهم لا يحتاجون فى ذلك إلى أبحاث أو فحوص ، فان الإيمان بأن يسوع المسيح هو «الأعظم» عندهم لا يحتاج إلى نقاش... لأننا إذا التفتنا إلى كل المستويات التى يمكن أن تقاس بها العظمة، فإننا نتساءل بحق: «من

يستحق أن يكون الأعظم؟» .. وهل يوجد بعد استخدام البشر لكل أنواع المقاييس فى هذا المجال أن يكون هناك من هو أعظم من يسوع المسيح أياً كانت الادعاءات أو الافتراضات التى تقارنه بسواه، فإنها فى نهاية المطاف تكشف عن عظمته هذه المتفوقة والتى تجعله بلا مثيل!! فهو الفريد فى عظمته من كافة الأوجه وعلى كل المستويات فبالنسبة للفنانين هو أعظم فنان، وفى مجال الإصلاح الإجتماعى نجده أعظم المصلحين، ومن جهة أسمى وأرقى تعليم نراه أعظم المعلمين وفى عالم الطب ، هو أعظم الأطباء، وهو أعظم الرؤساء... والأنبياء والملوك إلخ. فهل يوجد شخص آخر غير يسوع المسيح يستحق أن يكون الأعظم؟ والجواب بكل تأكيد كلا فإنه هو الأعظم بالاطلاق – ومن ثم فإن ذلك يستلزم التحول عن كل الأشياء الأخرى بأنواعها، وأن نتخلى عن تعصباتنا وأوهامنا وأن نلتقى عند يسوع المسيح حيث تسقط تفاهاتنا عندما نصل إلى هذا الكامل العظيم الذى لن نجد نظيره ولا مثيله على الإطلاق!!

****

• **موقف الكنيسة من عظمة المسيح :**

قال سمسون: «إن المسيحية هى المسيح» وانها لذلك سبب الحضارة والتقدم لكون كل الصفات الحميدة والسامية قد نبعت منه، وإذ هو بلا مثيل ولا نظير فقد استحق أن يأخذ المجد والكرامة..

ولذلك كان من الطبيعى أن تلتف الكنيسة الأولى حول إسم «يسوع المسيح». ولذلك فقد بدأت تبلور فكرها عنه فى العصور الأولى ، وتسعى للتعرف على شخصيته ، وكان ذلك بأن تحدثت عنه فى صيغ محددة وبسيطة ، لأن الإرتباكات حول شخصه لم تكن قد بدأت بعد التى بسببها إنعقدت المجامع المسكونية وتقرر فيها أن أى أقوال تقال عنه تحط من كرامته إنما تجعل أصحابها محرومين وتحت اللعنة لكونه أسمى وأعظم من أن يكون له مثيل أو نظير على وجه الإطلاق باعتباره «الإعلان الإلهى الكامل» الذى ظهر فى المسيح وهو بلا تغيير أو تبديل!!

وذلك لأن الكنيسة أدركت منذ البداية أن المسيح ليس بمادة غريبة على الله أو دخيلة عليه بل هو كائن إلهى – شخصية إلهية فى جوهر الله وذاته ومن هنا إكتسبت عظمتها من عظمة الله نفسه!!

****

وإزاء عظمة يسوع المسيح هذه اللامتناهية، كان لابد وأن يصبح «لوسيفر – زهرة بنت الصبح» عند سقوطه منافساً قوياً وخصماً عدواً للمسيح، يعمل دائماً لتقليل شأنه وقد بدأت محاولاته تبث

الضلالات التى ألقى بهـا فى نفـوس المبتـدعين داخـل الكنيسة نفسهـا وكان مطلعهـا الطعـن فى يسوع المسيح الأمـر الذى دعى بطبيعة الحال إلى عقد المجامع المسكونية لبحث الموقف ودراسة شخصية يسوع المسيـح:

لقد رفضت الكنيسة فى نيقية الإعتقاد بـأن المسيـح شبـه إلـه، كما رفضت فى خلكدون الإعتقاد المزعوم بـأن المسيح شبـه إنسان - لقـد وجـدت الكنيسة الشرقيـة أنـه من الصعب أن تتأمل فى ناسوت المسيح لمشغوليتها بلاهوتـه، أما الكنيسة الغربية فقد قررت أن الناسوت مهماً كاللاهوت...

وأما لوثـر الـذى افتتح بـه الله عصر الإصلاح فقـد اكتشف دائـرة الحق السالـف الذكـر بوجهيـه بقولـه: «وإن كان يجب ان نبـدأ بنـاسوت المسيـح الذى ظهر فيـه بين النـاس، ومـن هنـاك ننتقل إلى الإعتراف بلاهوته الأمر الـذى نصل فيه إلى الإقرار بأن المسيح هو الله حقاً بحكم الإرتبـاط التـام بينـه وبين الآب بـلا إنفصال بسبب وحدانيـة الجوهر، الأمر الـذى بسببـه وجدنـا فى المسيح قلب وإرادة الآب بل إنه إعـلان محبة الآب ورحمته الواسعة المدى...»

ولـذلك وقـف المسيحيون مـن المسيح منـذ البدايـة التى ظهـر فيهـا عنـد تجسده موقف التقدير والعرفـان بالجميـل إقـراراً منهم بما لهذه الشخصية النـادرة التى ليس لها مثيل من عظمـة فريـدة!!

* * * *

- **موقف بشرى مضاد وخاطىء:**

لا شك ان الشخصيـات العظيمـة - بطبيعـة الحال - يعجب بهـا مـن يعـرف قيمتها، لكن يطعن فيها ويقلل مـن شأنهـا من يغتاظ منهـا - أيًا كانت أسبـاب ذلك - ولذلك فلكـل شخص عظيـم مـادحين وقادحين، فما بـالك بأعظـم الشخصيـات كلها الذى عظمته غطت التاريخ البشرى كله وهى ليست نسبية جزئية لكنها كليـة مطلقـة، وهى تجعـل بينـه وبين الكائنـات المخلوقة تمييزاً تامًا لا ينـاقش، وذلك لأن شخصيتـه خارقـة ليست مـن طينـة البشر حتى ولو قيل بأنهـا أسماهـم، ولا هى مـن المادة التى خلق منهـا الملائكـة لكنهـا مـن الجوهـر الإلهى مـن ذات الله مبـاشرة...

ولذلك فإنه بين البشر والمسيـح هـوة سحيقـة لا يمكـن أن تعبـر - فنحـن البشر خلائـق مـن العدم وبحسب تعبير الوحى: «ها أنتم من لا شىء وعملكـم مـن العـدم» (أش ٤١: ٢٤)، أمـا هـو فهو الإله الـذى لا يمكـن مقارنـة أحـد بـه!! وحتى بعد تنازلـه وتفضلـه علينـا

بمنحنا نسبة من الاتصال به، إلا أنه يبقى كما هو، الفريد فى عالم الله من جميع الوجوه!! لأنه حتى وهو فى حال التجسد فإن المسافة التى بيننا وبينه لا يمكن عبورها، لأنه بالرغم من إتيانه متأنساً لفدائنا، لكن عظمته باقية له كما هى لم يؤثر عليها ذلك التجسد ولا قيامه بصنع الفداء... كل ذلك قررته الكنيسة وأعلنته بكل وضوح حتى إنها أصدرت لعنة الحرمان على من يخالفه...

****

كان من المفروض أن يمتد الإقتناع برأى الكنيسة وقبوله تلقائيًا لدى الجميع لولا أن العدو قد زرع الزوان فى الداخل فأقام آريوس ووضع فى ذهنه التصور بأن عظمة المسيح لا تتفق مع وحدانية الله فأنكرها وقام بنفى الثالوث كلية وفتح باب التلاعب الشرير بهذه الشخصية إذ أراد أن يجعلها مشابهة للآب لا مساوية له بتغيير طفيف فى حرف واحد فى (اللغة اليونانية) على أن أثناسيوس بطل الإيمان تصدى له ورفض قبول هذا التفسير وكان ذلك فى مجمع نيقية...

وقد وصل الحال بسبب بدعة آريوس إلى الحط بكرامة – الإبن – بسبب تجسده وتواضعه واعتباره مجرد إنسان، فقد أخذ المناوئون من بعده الصفات الإنسانية التى تتعلق بإنسانيته لمجابهة صفاته الإلهية وأنشأوا من ذلك التعارض الظاهرى بين الإبن والآب فى حين أنهما واحد والمساواة بينهما تامة من جميع الوجوه أساسها الوحدة فى الجوهر بلا أدنى افتراق فيه فيما عدا التمييز الأقنومى!

ولكننا قد وجدنا – مع شديد الأسف – ليس قبول وانتشار هذه الضلالات لدى الكثيرين، بل إنه لم يوجد فى التاريخ كله محاولات شيطانية قد بذلت ضد أى شخصية على مسرح الوجود مثل ما حدث مع يسوع المسيح، والقصد منها محاولة رفع غيره إلى درجته بل وأسمى على حساب الحط من كرامته! الأمر الذى يدفعنا للتساؤل: «لماذا كل هذه الحرب العنيفة ضده!؟ ولماذا الإدعاء بمحاولة تكريمه بنفى حقائق الألوهية والتجسد والفداء عنه مع أنه هو وحده المتميز بها..!؟ ولماذا كل هذا الإفتراء عليه، وعلى الذين يتبعونه ويقدرون شخصه رغم الإقرار الضمنى بأن الله جاعل هؤلاء فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة...

• خلفية الإفتراءات على المسيح:

هذا الذى ذكرناه هنا هو خلفية الإفتراءات الكثيرة على «المسيح» بالذات، وهى تزداد انتشاراً يوماً بعد الآخر ممن يتكلمون أو يكتبون عن المسيح بغير وعى أو إدراك لحقيقته بعد أن رفضوا ما أتى

به «الإعلان المكتوب» عنه، وقد برز أحدهم وهو ديدات - الذى أتقن فن بتر الآيات والتلاعب بالنصوص وتجميع أقوال المرتدين عن المسيحية لمحاربة «المسيح» بها وأنشأ من وراء ذلك مكتبة حديثة خصصها لمحاربة الثالوث، والمسيح ، معتبراً إيّاه مجرد بشر كسائر الناس وواصماً المسيحيين بالكفر حسبما صور له الوهم الباطل..... **وقد ظن أنه قد وجد ضالته المنشودة فى كتاب منسوب لمؤلف يذكر اسمه مرة (مايكل) وأخرى (ميشيل) هارت - وذلك على سبيل التمويه، وباعتباره مسيحى كاثوليكى غربى يرفع كتابه: «الخالدون مائة» فوق كتاب الوحى الصادق الأمين - وقد انتخب منه أعظم مائة شخصية مؤثرة فى التاريخ، من بينها المسيح وموسى وبوذا وآخرين من مؤسسى الأديان وقيصر ونابليون وكولمبس ومايكل أنجلو ...إلخ، وقد اختار مؤسس دين معين ووضعه فى الصدارة معتبراً إيّاه أعظم الشخصيات قاطبة لكونه استطاع أن يمزج الدين بالدنيا وقد خلق من البدو أمة عسكرية قامت بفتح جزء كبير من العالم وكونت بذلك إمبراطورية واسعة الأرجاء على حد قوله!**

وقد تراءى لهذا المؤلف المنتسب للمسيحية باطلاً وهو كأمثاله فى الغرب والشرق ممن يظهرون من حين لآخر ليعلنوا ارتدادهم عن المسيحية بالطعن فى عقائدها وخاصة المساس بعظمة السيد المسيح - أن يبحث فى نسب العظمة، ويعتبر المسيح من العظماء ولكن قد وضع المسيح رقم ٣ وموسى رقم ١٦ **وإننا نتساءل من الذى أعطى لهذا المفتون الحق فى ترتيب نسب العظمة التى بموجبها وزع العظماء - حسب وجهة نظره - وفقاً للترتيب الذى اخترعه!؟ وكيف تجرأ فى ذلك بأن يتعامل مع يسوع المسيح بهذه الصورة الغريبة!؟ وما هى المقاييس والمعايير التى استخدمها فى ذلك!؟ وهو فيما كتب يناقض العقل والمنطق ونصوص الكتاب المقدس - الذى هو ميزان الحق - والذى تكلم عن يسوع المسيح بما لم يخبر به عن آخر أيًا يكون هذا الآخر!! مما لا يصح معه أن يوضع المسيح فى كشف للعظماء لأنه «عظيم العظماء» وليس وجه للمقارنة بينه وبين غيره بأى حال من الأحوال - وهذا ما أثبته مجلة انكليزية فى القرن الماضى عندما طلبت من مائة من مشاهير إنكلترا أن يحصى كل منهم لها عشرة من أشهر مشاهير العالم وعظمائه فأدلى تسعة وتسعين منهم بأسماء ولم يكن ضمنها يسوع المسيح، وواحد فقط ملحد كتب اسمه ورد عليه التسعة والتسعين بأن يسوع المسيح ليس ممن**

يوضع إسمه بجوار أى إسم آخر أيًا يكون صاحبه...

ولذلك فإن ما ذهب إليه ديدات فى أحد كتبه مقتبساً من ذلك المؤلف قد اشتط فيه معه لأنه يرفع الفكر البشرى القاصر - غير المرتبط بوحى الله - على ما قاله الوحى عن يسوع الناصرى ومكانته فى عالمى الملائكة والبشر مما احتواه كتابنا السابق: «من هو يسوع المسيح»؟ وقد كشف بحثنا فيه على تأكيد أن شخصية يسوع المسيح فريدة النوع، ووحيدة الجنس لا يوجد لها مثيل لا من قبل ولا من بعد إذ هى من جوهر اللاهوت الذى لا يمكن ان تدخله خليقة ما، ولذلك لا يمكن مقارنته بتاتاً بأحد من البشر أو الملائكة أو أية خليقة يمكن تصور وجودها...

• شهادات مذهلة عن عظمة المسيح:

ومن ثم فقد أجاب عالم النفس اليهودى ألفرد آدلر عندما سئل: «ما رأيك فى يسوع المسيح؟» بقوله: «كلما ورد إسمه على مسمعى أقف أحتراماً لأعظم شخصية فى تاريخ الإنسانية»...

أما خالد مؤلف كتاب «معاً على الطريق» فقد ألزمته شخصية المسيح أن يقول: «إن القوة الخارقة التى ظهرت فى المسيح كانت نابعة من ذاته. لان ذاته لم تكن مثل ذواتنا، بل كانت مؤهلة لعظائم الأمور معبأة بطاقات فريدة هائلة»... ومن المعلوم أن الذى تكون ذاته غير ذواتنا هو الله سبحانه لأنه بإجماع الإتفاق لابد أن تكون الذات الإلهية مغايرة لسائر الذوات...!!

لذلك لم يكن هناك أدنى غرابة فى إتفاق كلمة المسيحية منذ البداية على ربوبية المسيح وألوهيته، فمنذ ظهوره وقد عرفوه وخاطبوه بوصفه «الرب» و«الإله» !! وفى نطاق هذا الإقرار ظهرت الكنيسة واجتمع المسيحيون الحقيقيون تحت إسم «يسوع المسيح» ورئاسته وحضوره الروحانى، مقرين بأنه ليس بينه وبين الآب أدنى فرق فيما عدا التمييز الأقنومى فقط!! ولا تزال الكنيسة الحقيقية تجتمع على هذا المبدأ مما حقق لها جوهر الإعلان الإلهى عن «يسوع المسيح» فى كامل معناه .. الأمر الذى صادقت عليه السماء بانسكاب الروح القدس على من يعطون للرب يسوع مكانته هذه ولا يزال هذا الأمر ساريا حتى الآن!! أى تجميع المؤمنين الصادقين معاً وتمركزهم فى «المسيح»، وأما من عداهم ممن لا يهتمون بهذه الحقيقة بالدرجة الكافية،

فإنهم يكوّنون المسيحية الإسمية الشكلية التى تعيش فى تشتت وافتراق تتمركز فى ما يعتبر بدائل ليسوع المسيح!!

****

ورغم كفاية ما سبق سرده عن «عظمة المسيح» إلا أن هناك شهادات أخرى متلاحقه عبر التاريخ نقتبس منها:-

* **شهادة نابليون وهو فى المنفى – قال:** «إنى أعرف الرجال فأقول أن يسوع المسيح ليس واحداً منهم .. أما الذين يشبهونه بمؤسسى الممالك ومعبودات القدماء فإن ذلك لعدم إدراكهم كنه حقيقته إذ أنه لا وجود لتلك المشابهة فى الواقع! إذ أن كل شىء فى المسيح يقضى بالعجب العجاب فإن حياته وتعاليمه ومملكته الروحية غلبت الدهور والأمم .. وكل ما وجدته فيه سر لا أقدر أن أنكره ولا أن أوضحه ولا أرى فى ذلك شيئاً بشرياً... فإن كل شىء فيه عظيم يستحق أن ينسب إلى الله تعالى. لأن كل شىء فيه خارق العادة ويفوق العقل البشرى. أعلن عن نفسه أنه إبن الله وجعل بينه وبين واضعى الأديان بونا شاسعاً، فما أعظم الدليل الذى نستدل به على الوهية المسيح فإنه أسس سلطة دينية عظيمة مطلقة غايتها تغيير المجتمع البشرى وإعداده للأبدية!»

* **شهادة ستروس العالم المشهور – قال:** «كما يصغر شأن الإنسانية بلا دين كذلك يقل قدر الدين بدون المسيح، فهو الباقى إلى الأبد عنوان الدين الأسمى، ونموذج الكمال المطلق...»
* **وقال رينان العالم الفرنسى،** «إن لم يكن المسيح إلهاً فوجب أن يكون إلهاً عند الصليب لاجل صفحة لأعدائه» وخاطبه بالقول: «استرح الآن فى مجدك أيها المؤسس الشريف فقد أديت عملك وتأيد لاهوتك، وليس بينك وبين الله فرق ما».
* **وقال الفليسوف ستيورت مل:** «لو أمكن للانتقاد العقلى أن يجردنا من كل حقيقة، فلا يمكنه أن ينزع منا حقيقة المسيح فهو الصورة المفردة التى تبقى عديمة التغير».

* **برهان ختامى من ربط الربوبية بالألوهية:**

نحن الذين آمنا بيسوع المسيح قبلنا ما قدمه الوحى الإلهى عنه، وشهادته هنا فى الثلاث آيات التى صدرنا بها هذا الفصل قاطعة يفهم منها أن المقصود «بالرب» فيها هو «يسوع المسيح»: الأولى تؤكد

بأنه ليس من يعادله أو يشبهه بين أبناء الله والثانية بأنه ليس هناك مثله والثالثة أنه هو الله...

وفي القول «من يعادل الرب أو يشبهه» تحقيق عن يسوع المسيح أنه ليس مثله بين البشر ولا بين الملائكة على الإطلاق – لا فى الزمان الحاضر ولا فى المحفل الأبدى – فليس بين أبناء الله من ملائكة ومفديين من يعادله، إنه هناك – كالفادى – فوق العرش تنظر إليه عيون المفديين فى السماء وكذلك من لا يزال منهم حالياً على الأرض – دون توقف – بعد أن أنار لنا الحياة والخلود!!

ولذلك فإن المقارنة هنا بينه وبين غيره تعتبر فى حكم المستحيل، لأن المقارنة إنما تقوم بين متشابهات أو متقابلات، لكن الذى لا شبيه له ولا مقابل لا يجوز القياس عليه.. ولا شك أن إيمان المسيحية قد وصل إلى هذا الإجماع استناداً إلى ما كشفه الوحى عن «المسيح»، وهو الحق المعصوم الذى يستند إليه هذا الإيمان، وهو يناظر من يجحده إذ يستحيل إثبات ما يخالفه!! فهذا الذى لا يشبهه أحد من أبناء الله – بهذا الاعتراف الصريح هو «يسوع المسيح»!! فلم يكن هناك «ملاك» أو «رسول» عمل ما عمله المسيح ولا قال ما قاله مما ظهر فيه السلطان الإلهى المطلق بل إن جميع الأنبياء والرسل مجتمعين معاً لم يستطيعوا أن ينازعونه من كافة الوجوه مما ينفى معه الزعم بمساواتهم له، ناهيك عن بطلان الإدعاء لبعضهم بالتفوق عليه أيًا يكون هذا الآخر...!!

****

لذلك فقد أعطى هذا المؤلف رقم ٦ لبولس الرسول زاعماً أنه هو المسئول عن تشكيل المسيحية وليس المسيح مع أنه على حد قوله: «ما كان يمكن أن يكون لبولس هذا القدر العظيم لولا المسيح نفسه»!!

أما إعلان الوحى فى الآية الثانية بالقول: «من مثل الرب إلهنا» فقد أوضح فيه بكل جلاء وبيان، كيف أن المسيح هو والآب واحد فى الجوهر، أما تميزه – بوجه مطلق – فانه يختلف اختلافاً كلياً عنهم فهم بعيدون تماماً عن الذات الإلهية.. وهذا كله يجعل المسيح حتى الصميم من ذات الله سبحانه، ويجعل كل من سواه من الأنبياء والرسل وعظماء التاريخ، جميعهم فى الصميم من طينة البشر بما فى ذلك جميع من أوردهم ميشيل

هارت فى كتابه «الخالدون مائة» والذى قام بترتيبهم على هواه ووضع إسم يسوع المسيح الثالث بعد إسمى نبى العرب وإسحاق نيوتن حسبما ارتآه!!

ولاشك أن هذا الذى فعله يتنافى مع تصريحات الوحى فى شأن يسوع المسيح ونسبة الألوهية اليه، ومن المعلوم أنه ليس هناك من يستطيع قبول هذا الإدعاء على نفسه ما لم يكن هناك سند يستند إليه فى ذلك، الأمر الذى يبدو معه عدم معرفة ميشيل هارت لحقيقة يسوع المسيح وإنه وهو يكتب عن «المسيح» بهذا الشكل فإنما يوصم نفسه بالارتداد عن المسيحية – وهو أمر سهل المأخذ لدى أصحابه سواء فى الشرق أو الغرب على حد سواء!! وقد فعل ذلك متجاهلاً أنه ليس على المسيح أوائل قط لأنه أول الأوائل كلهم مما لايجوز القياس عليه!! وما يشار إليه هنا عمن أعطاه الصدارة ونقلها عنه ديدات للأسباب التى تصورها، فإنها ليست بذات قيمة أمام عظمة «يسوع المسيح» الروحية الأبدية، فإنه لم يأت ليخلط الدنيا بالدين ولا لكى يؤسس إمبراطورية مبنية على السلاح وإنما جاءنا بملكوت الحب والسلام، وقد اخترق بنا الزمان ووضع الأبدية فى قلوبنا، وهى أسمى فى نفس كل قديس من إمبراطوريات بأسرها!! ومن الغريب أن مؤلف «الخالدون مائة» يعترف للمسيح بتأثيره الفريد ويقول بان لا أحد يناقش فى أن يكون هو أول القائمة ولكنه يطعن فى مكانته بأنه لم يمارس السياسة ولا السلطة الدينية وبأن بولس الرسول شريكه فى تأسيس المسيحية وإنه لم يكتب ورقة واحدة

أما إعلان الآية الثالثة وهو: «اعلموا أن الرب هو الله»، فهو جد خطير وقد تكرر مرتين فى مزمورى ١٠٠ و١١٨، وإننا لواجدون فى هذا القول إعلان غريب – إذ ماذا كان من داع لهذا التبيان إذا ما كان المقصود به اللاهوت بالإطلاق إذ ليس هناك من يعلم ذلك لأنه معلوم من طبيعته، لذلك لابد أن يكون للعبارة قصد آخر ضمنى وهو أن الرب هنا هو «يسوع المسيح» باعتبار أنه قد ظهر بين الناس كإنسان منظور، مما يجعل للبيان معناه وهو إن هذا الإنسان الذى ترونه يأكل ويشرب ويجوع ويعطش هو الله عينه، فهو ليس غير الله ولا أقل من الله، بل هو الله، ظاهراً فى الجسد، ومع ان البعض يعيب علينا إعتقادنا هذا فيه متجاهلاً أن الأكل والشرب هما من الناحية الناسوتية كإنسان، غاضين الطرف عن النواحى

الأخرى اللاهوتية محاولين بذلك الخفض من عظمته الشخصية الفريدة لهذا السبب الظاهرى الذى يتمسكون به دون سواه ويدعمونه بالآيات التى تثبته غاضين الطرف عن تلك التى تثبت عظمة لاهوته التى لا يشاركه فيها أحد من الخلائق!!

وقد وجدنا أن هذا النص يتحاشى شهود يهوه ذكره لأنه يفضح ضلالتهم إذ يدل على المساواة بين يسوع ويهوه، فلا يمكن أن يكون يسوع شيئا آخر غير يهوه الله!!

وأما عن ربوبية المسيح فى حد ذاتها فقد أعلنها الانجيل عنه ٤٠٠ مرة مما ألزم مجمع نيقيه أن يقررها عند صياغة قانون الإيمان فى القول:

«ونؤمن برب واحد يسوع المسيح» استناداً إلى ما أعلنه الإنجيل عنها فى القول، «لأن الله جعل يسوع هذا ربًا ومسيحاً» (أع ٢ : ٣٦) كان هذا إعلان لجميع بيت إسرائيل وقد توسع نطاق هذا الإعلان فى بيت كرنيليوس ليشمل من يتقى الله فى كل أمة وذلك بأن يكون مقبولا لديه على أساس الإقرار بأن يسوع المسيح هذا «هو رب الكل» (أع ١٠ :٣٦)

ولأجل ذلك كان هو المتفوق بلا مثيل فى كافة المجالات حتى أن أعماله إنما كانت إلهية بأسرها فهى بلا شك مما لايمكن أن تضعه فى مصاف البشر، وهى كلها تثبت عظمته وكيف أنها بلا حد وليس لها استقصاء ولذلك فهو الأعظم!!

****

ومن ثم فانه ولو اجتمعت كل الشياطين التى فى الهواء وفى الهاوية وعند نهر الفرات ومعها كل البشر لأجل مقاومة شخصية المسيح والنيل منها، فإنهم لن يؤثروا على عظمته بشىء، بل سيأتى عليهم اليوم الذى فيه يقدّرون عظمته هذه، ولكن بعد فوات الأوان، عندما تجثو له كل ركبة ويعترف به كل لسان!! - بالأمر الإلهى المباشر - بأن يسوع المسيح هو رب لمجد الله الآب ... ولكنه اعتراف بعد أن يكون عصر النعمة قد انتهى وجاء يوم العقاب، أما الاعتراف الأجدى والأجدر الذى يمنح أصحابه متعة دائمة وسعادة تامة فهو الاعتراف الإيمانى به من أتباعه الحقيقيين الذين فى وسعهم أن يخاطبونه بتأكيد صادق قائلين له:

«أنت هو الأعظم!!»

****

هو الأعظم لأن فيه ظهر التجلى الإلهى

«الله لم يره أحد قط الإبن الوحيد الذى هو فى حضن الآب هو خبّر» (يو ١ :١٨)

«وجدت من الذين لم يطلبونى وصرت ظاهراً ..»
(رو ١٠ :٢٠)

«الله بعدما كلم الأباء بالأنبياء قديماً بأنواع وطرق كثيرة كلمنا فى هذه الأيام الأخيرة فى إبنه ... الذى هو بهاء مجده ورسم جوهره» (عب ١:١ – ٣)

* * * *

* **إتصاف يسوع المسيح بالوجود المطلق:**

لاشك فى إتصاف يسوع المسيح بالوجود المطلق وهو الصفة الوصفية الأولى التى يتصف بها الله وحده دون سواه وهو الوجود غير المحدود غير المحوى والذى لا يُحاصر ولا يُحاط به. وذلك لأن الوجود الإلهى ليس فقط واجب لكنه أيضا مطلق: أى إنه الوجود غير المتحيز اللانهائى الذى لا حدود له – وهذا متوقع بالنسبة لطبيعة جوهر اللاهوت، لأن وجود الله المطلق طبيعته شاملة لباطن الوجود وظاهرة على حد سواء – فهو وجود خفائى لا يمكن إدراكه ولكنه أيضا إستعلانى ظاهر فى ضبط الكون وحفظه .. والأمر فى حقيقته محيّر لأنه يوجب علينا أن نسلم ونفترض بأن وجود الله متميز ويفترق عن وجود الكائنات فلا هى أزلية معه ولا هو سبحانه محدث معها..!!

وهذا يقطع برفض قبول الحلولية التى تزعم أن الله فى كل شىء وكل شىء فى الله ، وأن الله وكل شىء واحد كما وأن وجود الله مطلق لأنه لا تحده سماء ولا أرض لأنه وجود سابق لخلقهما وهو يملأ الكل دون تحديد أو حصر!! مركزه فى كل مكان دون أن يكون لوجوده دائرة تحيط به، وهو موجود فى كل مكان فى وقت واحد بشكل لا يصل إليه الإدراك ... فإننا لنعجز عن فهم كيفية ذلك بسبب أن اللامتناهى يفوق إدراك العقول المتناهية التى ليس فى وسعها أن تعرف كنهه!!

ومن ثم فإن هذا الوجود المطلق هو عين الذات الإلهية من حيث أنه وصف لكمالها غير المحدود وغير المتغير – فهو تاج الكمالات الإلهية لأنه إتصاف بتفوق الوجود الإلهى على سائر الكائنات فى البساطة وانتفاء الحدود إذ هو ليس مبتدىء ولافان ولامخلوق!! ولذلك فإن لانهائيته إنما تعنى أنه هو الوحيد الذى ليس له آخر، فهو فوق الكم والكيف ليس له امتداد ولا يقبل الإنقسام، ومن ثم فان هذا الوجود المتسامى إنما هو وجود متحرر من شروط الوجود الطبيعى لحصول الكمال به...!!

****

وهنا يقابلنا سؤال فى غاية الأهمية وهو «هل يتصف يسوع المسيح بهذا الوجود المطلق!؟ ان مميزات هذا الوجود قد وردت بوجه خاص عن «يهوه الله» فى أشعياء فى النص الوارد فى (٤١:٤ و ٤٤:٦ و ٤٨:١٢) وهو «أنا هو الأول وأنا هو الآخر»، ونجد ما يتطابق معه قد جاء فى سفر الرؤيا (١:٨ و ١١ ، ٢:٨ ، ٢١:٦ ، ٢٢:١٣) عن يسوع المسيح فى القول: أنا هو الألف والياء. البداية والنهاية. الأول والآخر.!!

وفى هذا التطابق الخاص «بالوجود المطلق» بين يهوه الله ويسوع المسيح، نجد الجواب بأن ليسوع المسيح هذا الوجود المطلق بعينه إذ قد ظهرت فيه علاماته بأجلى بيان مما يدل على أنه واحد مع الله له نفس الجوهر والصفات!!

****

ومما لاشك فيه أن المعتقدات الإلهية تستلزم منطقياً بعضها البعض لأنها جميعها ليست خارجة عن دائرتها الخاصة – وهذا على أساس «اللزوم المتبادل» فيما بينها مما يستوجب قبول الحقائق الدينية تلقائياً – فماذا عن هذه الحقيقة المعروضة للبحث هنا وهى تدور حول يسوع المسيح الذى هو محور التساؤل على النحو الآتى: «هل إله المسيحية وهو الإله الذى ظهر فى يسوع المسيح – أصبح بذلك الظهور – كما يتصوره البعض إلها صغيراً» بالنسبة لله الذى تؤمن به أديان أخرى، أم هو الله بعينه فى ضوء الإعلان الكامل الذى وقفت عليه المسيحية وتمسكت به!؟ وهل يحتوى هذا الإعلان مظاهر الوجود المطلق كما تجلت فى يسوع المسيح!؟

*** إن نقطة البداية فى الرد هنا هى: «كيف يمكن أن يكون يسوع المسيح إبن الإنسان – هو الإله بعينه»؟ طبعاً الذين يرفضون ذلك بعقولهم ممتنعين عن الإيمان به يتهمون المسيحية بأنها**

لا تعرف الله الحقيقى لانها تعبد إنساناً مرئياً تظن أنه الله - لكن إتهامهم هذا إنما هو تجاوز مبنى على سوء فهم، لأنا ستخدام اسم «الرب» و«أنا هو» وهو الترجمة للفظه «يهوه» وهو إسم مفرد لم يستعمل لغير الله قد وصف به الإبن كالآب تماماً وهو إسم الذات الإلهية مباشرة، ولذلك قيل عنه: «الرب الكائن والذى كان والذى يأتى» (رؤ١:٨) وهذا فعل الكينونة فى صيغة الثلاث الذى يعلن سرمدية يسوع المسيح أى وجوده المطلق بلا قيد من الزمان...

* وأما من جهة حلوله باللاهوت فى الناسوت فهو أيضاً حلول بلا حصر أو تحديد أى أن جسد المسيح حل فيه كل اللاهوت، ولكنه بقى موجوداً فى نفس الوقت فى كل مكان آخر إذ هو يملأ الوجود كله ووجوده الخاص هذا إنما هو بلا حد أو نهاية... وأما مجيئه إلى العالم فقد كان بغير حركة إنتقال يملأ بها حيزاً ويفرغ آخر لأنه هو الذى يملأ الكل بكيفية غير مدركة، ولذلك فإن حلوله لا يستلزم تحيزاً ولا انحصاراً : إنه حلول غير المحدود بملئه فى المحدود دون أن يتحدد فيه، وهو أمر فائق الإدراك بوجه مطلق يصفه أثناسيوس بالقول: «إن كلمة الله فى تأنسه لم يكن محصوراً فى جسده لأنه وإن كان قد حلّ فيه ولكنه كان حالاً أيضاً فى كل شىء آخر إذ أنه لم يصبح محصوراً فى الجسد كأن أى مكان آخر أصبح خالياً منه...» انظر قوله: «وليس أحد صعد إلى السماء إلا الذى نزل من السماء إبن الإنسان الذى هو فى السماء» (يو٣:١٣) فهو صعد ونزل وهو فى السماء كما هو، ومع أنه الآن فى وسط العرش إلا أنه هو أيضاً فى وسط المؤمنين فى كل مكان، فالعرش نفسه لا يحده ولا يقيده كما أنه قد وعد المؤمنين بأن يكون معهم إلى انقضاء الدهر.. وكل هذا وغيره دلائل وجوده اللانهائى وهو ما لا يوجد له مثيل فى الكائنات الأخرى على الإطلاق.. وهذا هو الإعجاز المطلق الذى يتميز به وقد تأيد من الإنجيل أيضاً باستعلان قدرته على الظهور والإختفاء كيفما يريد وفى أى وقت يشاء وبالنسبة لأى مناسبة أو حادثة ، حتى ظهر واضحاً أن هذه كانت خاصية دائمة يتصف بها، قدرة فريدة معناها أن يجمع

اللاهوت فى باطنه وظاهره على حد سواء:

* ففى مجمع الناصرة حدث له تحدى عندما إمتلئوا غضباً حين سمعوه، فقاموا وأخرجوه خارج المدينة وجاءوا به إلى حافة الجبل... حتى يطرحوه إلى أسفل. أما هو فجاز فى وسطهم ومضى (لو٤:٢٨-٣٠) شرعوا فى طرحه لكنهم لم يجدوه إذ ليس هذا هو الذى يُمسك ويُحاصر بأى حال من الأحوال...

* ونراه مع تلميذى عمواس بعد أن كسر لهما الخبز، انفتحت أعينهما وعرفاه ثم إختفى عنهما (لو ٢٤:٣١) لأن له الوجود المطلق فهو حر التصرف بلا قيود!!

* وعندما شرعوا فى رجمه ورفع الحجارة عليه أثناء إعلانه عن نفسه كالكائن قبل أن يكون إبراهيم، نراه أيضاً يخرج من الهيكل ويختفى مجتازاً فى وسطهم ومضى هكذا (يو٨:٥٩) - إجتاز فى وسطهم وفى أيديهم الحجارة! وفيما بعد ذلك طلبوا أن يمسكوه فخرج من أيديهم (يو١٠:٣٩).. ويقيناً إنهم تحيّروا وذهلوا بل صعقوا حينما خرج من أيديهم وجاز فى وسطهم هكذا دون أن يستطيعوا مسكه - الأمر الذى لم يحدث معه قط إلا عندما سلم نفسه بإرادته إذ لم تكن هناك أى قوة بشرية أو شيطانية تستطيع أن تأخذ منه الحياة - ألسنا نرى فى هذا كله الوجود المطلق أى طبيعة اللاهوت بعينها!؟ وماذا نقول عنه عندما كان فوق الجبل يصلّى وتلاميذه فى السفينة المعذبة فى وسط البحر وفى لحظة جاءهم ماشياً على البحر وطمأن تلاميذه بأنه هو لا آخر الماشى على أعالى البحر..!!

وماذا نقول عن عدم استطاعة الموت أن يمسكه (أع ٢) ، وعن دخوله العلية والأبواب مغلقة واخيراً عن ظهوره المرتقب فى المجىء الثانى كالبرق - ومن المؤكد أن طبيعته هذه لم تتغير إذ هو أمساً واليوم وإلى الابد!!

****

* **التجلى الإلهى ومدى ارتباطه بالوجود المطلق:**

يتطلب استجلائنا لحقيقة اللاهوت فى المسيحية أن نقف على معانى بعض الكلمات والألفاظ التى تبدوا غامضة بالنسبة لكثيرين من المسيحيين مثل كلمة «التجلى» وهى تعنى «الإظهار» و«الكشف»

وهي ملتقى الصوفيــة فى الأديــان وهى تعلن أنه وإن كان الوجود المطلق لله يعنى خفائية وجوده ولانهائيته – وهـو جـانب غير معـروف بتاتـاً عـن الله – فـلا أحـد يعرف أين هـو ولا كيـف هـو ولا كيـف يمكـن أن تنشأ علاقـات معـه إذ أن ذلك فى حكم المستحيل ! وعدم معرفته ورؤيته لا ترجـع فقــط إلى قصور إدراك ونظـر المخلوقات بل أيضاً لطبيعة الوجـود الإلهى نفسه لأن المعرفــة والرؤيــة تحدده وتصور الإحاطة به وهذا فوق طاقة العقل البشرى الذى لن يستطيع أن يحتمل حقيقة الوجود الإلهى المطلق من هـذا القبيـل...

ولكن التوقف عند هذا الحد يعنى تحديد الوجود المطلق الذى يخص الله بمنع الظهور عنه وهذا يتنافى مع ما يتفق مع معنى الوجود المطلق بأنه لا يقيده شيء ما على الإطلاق، ثم هل يكون من المقبول أن الله الذى أعطى للمعدومين الوجود، الذين لم يكن لهم وجود سابق بل كانوا فى العدم، وبقدرته الفائقة أوجد لهم وجود فعلى فى عالم الواقع – فهل الذى فعل ذلك يكون هو فاقد لقدرة الظهور بالنسبة لوجوده الخاص إذ أنه لو كان كذلك وبقى وجوده خفائياً أى هـو الباطـن فقـط وكأنه عاجز عن الظهور – وهذا هـو إلـه التنزيه البحت – وهو مما يجعل الله إله فى الوهـم أو فى الخيـال أى ليس لـه وجـود حقيقى وبالتالى يتحول إلى «إلـه مجهـول» ولكـن الحقيقه في المسيحيـة وصداهـا فى الصوفية تعلن أنه قادر على الظهور – وهذا هو التجلى!! ، ..

* * * *

والتجلى – عنـد بحث معنـاه – وجدنـا أنه عبارة عن ظهور صورة الجمـال الإلهى وحتى من جهة الصورة الجوهريـة التى لا تراهـا العيـون ولا تدركهـا الأبصار، نـراه تعالى متجلى لنفسه بتجلى واحـد فى الأزل كما فى الأبد، وهذا حكـم ذاتى لـه، وهـو المستأثر الذى لا يتجلى به لغيره، فهو يرى ذاتـه ويعرفهـا دون أن يكـون للخلــق فى ذلك نصيب البتة، ولكنـه تعـالى قـد تجلى للخلق – وهذا أمر لابـد منـه ليكـون هـو القطب الوحيد الجاذب لخليقته – على أن تجليه لخليقته لم يغيّر ما هو عليه من تجليه لذاته الأمر الذى لا يشاركـه فيـه سواه... إذ هـو على مـا تقتضيـه ذاتــه مــن التجلى والاستتار – لا يتغير ولا يتحول ولا يلبس شيئاً فيتـرك غيـره ولا يخلـع شيئاً فيأخــذ سواه!!

وتجلى الوجود الإلهى للخلـق إنمـا يبين الرغبة منذ القـدم فى الـوصول إلى حقيقـة «الذات الإلهى» بحالة أكثر ملاءمة لقلـوب البشر، وإن كانت الصوفيــة قــد إتجهت إليها، لكنها لم يمكن الوصول اليها بـدون

الإعلان المسيحى!! فهو الذى تحقق به وصف الله سبحانه بأنه الباطن وهو أيضاً الظاهر (كتاب الإنسان الكامل جزء ١ص٥١)

فإذا ما قيل : «كيف يحل الله فى مظهر أو يتحد به ولا وجود أعظم من وجوده فيحتويه؟ وكيف يتميز فى شكل مظهر محدود وهو المطلق الذى لا يتميز؟ الجواب على ذلك نجده فى أن ظهوره هو عين بطونه، وبطونه هو عين ظهوره وذلك من حقيقة ما هو الله – وهذه مسألة محيّرة إذ كيف يكون الأمر باطنه ظاهره، وظاهره باطنه – وما فائدة التقسيم فيه بالظاهر والباطن، وليس فيه تغاير فى نفس حصول المغايره ولا إنفصال ولا إنفكاك بوجه من الوجوه.. ولكن هكذا يكون تجليه للعيان حتى لا يقال بأنه لم يظهر لتفاوت العقول والمدارك – لأن هذا مهرب فاشل!!

****

ومن المعلوم أن خلفية التجلى هى بلا شك الحنين لرؤية الله: وذلك موجود غريزياً حتى فى قلب التوحيد البحت ، وقد جاء هذا الحنين معارضاً لرأى أصحاب التنزيه البالغ ممن يقولون باستحالة رؤية الله فى الدنيا والآخرة والإكتفاء بالإحساس الباطنى بوجوده...

كان هذا الحنين هو أساس التصوف فى الأديان وأما أسلوبه فكان ولم يزل عند البعض هو طريق التقشف والزهد وقد أخبرتنا الكلمة المكتوبة بأن هذه ليست بقيمة ما من جهة إشباع البشرية (كولوسى٢:٢٣)

ولذلك أقرت الصوفية تجلى الله أى ظهوره فى صور الجمال التى يختارها حتى قيل أنه كان من بين تلك الصور «آدم» الذى أمر الله إبليس أن يسجد له لتجليه فيه على حد قولهم !! **ولذلك لم يكن هناك استغراب لظهور الله فى يسوع المسيح به يمكنا مجابهة من ينكرون ذلك – وإننا بدورنا نسألهم : «كيف يكون الله محتجبا دون ظهور»؟ ولماذا لا يتجلى حتى لا تستحيل رؤيته!؟ هنا قمة الإعجاز، الإعلان عن الحب كله المتدفق من هذا الإله المتجلى والجمال كله الذى يحوزه ويتميز به – فهل هناك أدنى غرابة فى تصديقنا على حقيقة ان يسوع المسيح هو الأعظم لظهور التجلى الإلهى فيه!؟**

****

أما الزعم الذى نادى به «السحار» فى كتابه : «المسيح عيسى ابن مريم » موجها عبارات دخيلة مختلقة بثها على لسان

الشيطان نفسه ووجهها وفقا للحوار الذى تصور بأنه دار بين الشيطان والمسيح وضمن ما ورد فيه قول الشيطان للمسيح – بحسب زعمه – : «إنى لا أقول أن تكون إلها ليس معه إله، ولكن الله يكون إلها فى السماء، وتكون أنت إلها فى الأرض » فمن المعلوم أن هذا الكلام وحواشيه لا يستند إلى نص يقوم عليه فهو يفتقر إلى الدليل الذى يبرهنه وقد جاوز فيه مؤلفه المنقول والمعقول أيضاً!!

وأما من جهة الثالثة فى الألوهية التى وردت فى حديثه المصطنع فإننا نرد عليه بما قاله الشيخ الجيلى فى كتابه الإنسان الكامل «جزء ٢ ص ١٢٧» ونصه :«إن النصارى عبدوا الله تعالى فى عيسى ثم قالوا بعدم التجزئة، ثم قالوا بقدمه على وجوده فى محدث عيسى، وكل هذا تنزيه فى تشبيه لائق بالجناب الإلهى – وهو مما يجعل النصارى فى درجة الموحدين»

أما عن التقسيم المزعوم للعالم الذى بموجبه يكون الله إلها فى السماء والمسيح إلها فى الأرض فلا وجود له لا فى نص ولا فى منطق ولا يقبله عقل، وإنما هو نابع من عدم إدراك الحقيقة الإلهية فى المسيحية، فمن المعلوم **إن جوهر اللاهوت محتجب لا تراه العيون ولا تدركه الابصار إذ هو غير مرئى وغير مدرك، وذلك باقرار الوحى والواقع، ولكن لكى لا تستحيل رؤيته اتحد بالجسد المرئى والمدرك، فصار غير المنظور منظوراً وغير المحسوس محسوساً، وفى الوقت نفسه بقى كما هو غير محسوس ولا مرئى ولا مدرك!!**

فأصبح تعالى مرئياً من حيث إتحاده بالجسد المرئى مع أنه غير مرئى من حيث جوهر لاهوته – لذلك نجد المسيح يخبر تلاميذه بهذه الحقيقة بقوله: «إن الذى رآنى فقد رأى الآب» (يو١٤:٩) مبينا بذلك أن من رأى الإله المتجسد فقد رأى غير المتجسد إذ أن اللاهوت جوهر واحد فى السماء يتقدس وهو بعينه على الأرض فى الجسد يتمجد!! ومن ثم فإن إله الكون قد ظهر متجسداً ومرئياً وهو الغير متجسد ولامرئى بجوهر لاهوته، وهو بعينه الإله الواحد فى السماء وعلى الأرض على حد سواء، ولذلك فإن المسيح له المجد يعلن عن نفسه قائلاً: «أنا والآب واحد» (يو١٠:٣٠)، وقد تفرد فى النطق بهذا القول إذ لم يجرؤ أحد غيره أن يشاركه فيه على الإطلاق!!

****

* **إعلان التجلى الإلهى فى أسفار الوحى:**

قدمت لنا أسفار التوراة أوصاف التنزيه التى يتصف بها الله فتحدثت عنه باستحالة تحديد جوهره فى شكل مدرك بأى وجه من الوجوه ولذلك كان من غير المعقول الكلام عما هو ممكن وما هو غير ممكن بالنسبة للجوهر الإلهى!!

ومع ذلك فقد وردت فى تلك الأسفار مظاهر تجليات لهذا الإله تصور ظهور الله فيها... ولقد كان من المنتظر أن يتم هذا التجلى تدريجياً، وهو قد بدأ بصور استعلانات له تعالى فى مظاهر متنوعة: فى صورة الريح أو النار أو السحاب والضباب أو الدخان أو عقل النبى أو الورق والرقوق - هكذا كان يتجلى الله فى أنواع وطرق كثيرة، **فهل يكون هناك أدنى غرابة أن يكون آخر هذه التجليات وأسماها تجليه فى جسد يسوع المسيح، ذلك الناسوت الطاهر المقدس الذى فيه تجلى اللاهوت السامى الفريد وبذلك استطعنا أن نرى الله فيه يكلمنا ويخاطبنا ويتعامل معنا، ليس على مدى الزمان فقط بل بطريقة أزلية أبدية...**

وحقاً لم تكن تلك الإستعلانات السابقة إلا كتمهيد لظهور متكامل، لحقيقة أراد الله أن يفاجىء بها البشر وهى موضوع الدهشة والعجب إذ أنها سر من أسرار الألوهية التى لا تخضع لسلطان العقل البشرى وإنما يكون تقبلها عند من يقبلها إيمانياً وتصديقاً للوحى الذى أعلنها. وهذا ما أعلنه الرسول بولس بقوله: «وبالإجماع عظيم هو سر التقوى الله ظهر فى الجسد»... ومن المعلوم إن هذه الحقيقة الإيمانية قد أتعبت المنكرين للظهور الإلهى بغير وجه حق ممن يحددون الإلوهية ويضعون الإله فى معزل خفائى بعيداً عن كل الكائنات !!

* * * *

* **هذا التجلى هو أخطر أحداث التاريخ كلها:**

لاشك أن التجلى الإلهى فى شخص يسوع المسيح ليس هو بالأمر الهين البسيط بل هو فى الواقع أخطر أحداث التاريخ - وذلك لأنه يمثل لنا ناحية فريدة من نواحى عظمة الله وكماله المطلق وهو مما لا تحيط به إدراكات العقول كما أنه لا يخضع لنظام العلم البشرى... وقد بدأ هذا التجلى **باختيار الله لنفسه محل حلول يحضر فيه حضوراً خاصاً دعى «بالشكينا» وترجمتها «السكينة» وهى الحضور الإلهى فى سحابة المجد وكانت تسمى «بهاء**

الرب» وعند إستكمال الإعلان تم تطبيق ذلك على يسوع المسيح نفسه إذ دعى «بهاء مجده» أى «مركز تجليه»... ومن ثم فإن هذا الحلول بموجب تمام إعلان الوحي المكتوب عنه قد تم نهائياً ومركزياً وأبدياً فى يسوع المسيح!! وذلك لأن كل ظهورات أخرى طبيعية أو ملائكية سواء كانت ريحاً أو ناراً أو زلزلة أو أحد الملائكة مثل جبرائيل أو ميخائيل، إنما تحدد بالعنصر أو الكائن الذى تظهر فيه، **أما فى شأن هذا التجلى الإلهى المطلق الذى ظهر فى يسوع المسيح فإننا عندما نتأمله يصيبنا الروع ونقف مشدوهين أمام جلاله الذى يستولى على العقول والقلوب بل كيان المستغرقين فى تأمله، وهو الذى يفك عقد الحياة ويخلصها من النفايات ويدفع بها إلى منطقه الإتزان والتشكيل الصحيح!!**

* * * *

ونعلم أن إنكار هذا التجلى الإلهى فى يسوع المسيح هو المانع الوحيد الذى وقف حائلاً دون التمتع بالمشاهدة الروحانية للحضور الإلهى والإحساس بها بحالة من اليقين العقلى والشعورى، وليس هناك من سبب آخر معقول غير هذا الإنكار!!

«واضح من سياق «الإعلان المكتوب» أن رجاء توقع ظهور الله أخذ شكل إنتظار ذلك الظهور فى المسيح - أى توقع إتمامه فى المسيا النائب المنظور للإله غير المنظور، والذى ستم به صورة ملكوت الله فى ثيوقراطية كاملة تخضع لها كل الأرض وتتمثل فى هذا الحاكم المعين من الله والمؤيد بقدرة فائقة لإدارة هذا الملكوت!!

ولذلك فإننا نرى من خلال العهد القديم الرغبة والتوقع فى أن يظهر الله ذاته فى طريقة لا تضع حقيقته وقوته موضع شبهة أو ظن، فكثيراً ما كان يشق مظاهر الطبيعة ويخترق حجبها ليظهر جوانب من عظمته فى الخليقة، ولكن ذلك إنما على سبيل الرمز لشىء تدعو الضرورة القصوى لإدراكه بوضوح **وهو أن يهوه نفسه سيقف يوماً ما على الأرض فى صورة ما - والتى وهى عجيبة للغاية - فإنها ستكون مرئية ومدركة بالحواس...**

وتظهر هذه الضرورة فى شكل الإشتياق الذى يصرخ طالباً الإله الحى، فإن العيون البشرية تتوق أن تراه فى شكل ما... لدى الناس رغبة قوية لحضوره وسكناه معهم فى هيئة مألوفة يسير بينهم ويكون إلها لهم!!

هكذا كانت التوقعات وقد ظهرت فى كثير من الأديان، وهى تثبت أن العقل

البشرى يتلمس فكرة ما عن تجلى الإله فى شخصية تاريخية تظهر فى حيز الزمان وحيث يعيش البشر – وذلك إنما يقابل الشوق البشرى إلى الشركة مع الله لتحدى وحشة الحياة وإجتياز كارثة الموت وإدخال النفس إلى سر الخلود!! وواضح أننا فى التجلى الإلهى الذى ظهر فى يسوع المسيح قد رأينا الله وسمعنا صوته، وبه سنلتقى فى الابدية عند انتهاء الحياة الحاضرة ، وهكذا صار من حقنا بموجب هذا التجلى أن نتمتع بظهور الله فيه إلى الحد المتاح بالنسبة لنا – وهذه هى المسيحية الاصيلة!! مما يؤكد بأن هذا التجلى هو أعظم حادث فى تاريخ البشرية إذ هو يكشف عن كيفية توثيق العلاقة بين الله وخليقته!!

* **الله بين التنزيه والتجلى:**

يتمسك أصحاب التنزيه البالغ بما يقولونه عن الله بانه هو :«الذى لا تراه العيون ولا تدركه الابصار» متصورين بذلك أن هذه كلمات جديدة تخصهم ولكننا بالرجوع إلى الكتاب المقدس نجد أنها معلنة فيه فى قول أشعياء عنه: «حقاً أنت إله محتجب» وقول المسيح أيضاً :«**الله لم يره أحد قط» والمقصود بالرؤية هنا سواء العيانية أو الإدراكية أو المعرفة أو الإحاطة – وهو من هذا القبيل لغز محيّر إذ لا يمكن إدراك ذاته ولا فهم كنه جوهره: أى أن الله – فى جوهر لاهوته وكنه ذاته لم يره أحد قط فى أى وقت...**

فإذاً لا أحد من الناس ولا من الملائكة عرف الله حق المعرفة ليستطيع أن يعلنه بلا خطأ، لأن رؤية الله ضرورية لمعرفته وذلك لأنه بسبب لمعان طبيعته الروحية فإنه لا يمكن للعيون المجردة أن تراه.. كما أن الإعلان الذى أعلنه عن ذاته فى العهد القديم كان إعلاناً ناقصاً لا يقارن بالإعلان الذى أتى به يسوع المسيح الذى انفرد بحقيقة أنه هو الذى رأى الله وعرفه حق المعرفة:

لقد سمع موسى وآخرين صوته ورأوا سحابة حضوره ولكن مثل هذا الإستعلان الذى تجلى به الله فى يسوع المسيح لم يحدث مثله من قبل ولا يتكرر فى أحد غيره من بعد!! ولم يكن للأنبياء إلا أن يعلنوا ما أعلن لهم بوحى أو برؤيا، وما كانت تلك الإعلانات التى حصلوا عليها إلا إعلانات يسوع المسيح لهم فحسب، **إذ هو الإبن وله ولأبيه طبيعة واحدة وصف بها بأنه «الإبن الوحيد» مما يدل على النسبة الخاصة التى يتميز بها عن نسبة كل كائن آخر.. ولذلك كان هو الوحيد المؤهل لإعلان الله عن طريق التجلى، فقدم لنا هذا**

الاكتشاف المذهل ليس فقط بإعلانه ما هو خفى عن الله بل وما هو مخفى بوجه مطلق!! هذا هو المعنى المقصود بالقول الوارد عنه هنا وهو: «إن الإبن الوحيد هو الذى خبّر» أى أعلن وحرفياً يعنى الذى «ترجم الألغاز أى فسرها وحلها فهو الذى حفظ لله جلال خفائيته - الجانب الذى حظى بكل الاهتمام عند أهل التنزيه - ولكنه جاء لنا أيضاً بالأخبار السارة التى بها أدركنا أن الله الخالق العظيم هو نفسه قد صار أبونا - وهكذا لم يعد التنزيه هو كل ما يجب أن نعرفه عن الله وهو الذى ينفى كل علاقة مع الله، بل قد كشفت المسيحية عن تجليه فى الإبن فى الصورة الشبهية التى تجسدت فيما بعد، وانفردت المسيحية بها لتحقيق الوجود الإلهى وظهوره فى التجلى فوجدناه يقول:«وجدت وصرت ظاهراً» وهذا الذى وجدناه فى رسالة روميه مقتبساً من أشعياء يكشف عن آخر طريقة لتعامل الله مع البشر وهى التجلى» دون التوقف عند حد التعامل مع شعبه القديم بطريقة التنزيه فقط.. أما عن هذا الظهور - بالتجلى - فقد قصد به توضيح ما عليه الله فى ذاته بتقديم مفهوم إلى حد ما - قدر طاقة العقل البشرى - لمعانى وصفات اللاهوت المحتجب!!

إذ أنه مهما سمت امتيازات من تقربوا إلى.الله فإنه لم يوجد ولا واحد بينهم فى أى أمة أو أى عصر عرفه تماماً.. أما الإبن الوحيد فقط فهو الذى يعرفه وقد رآه ولذلك كان بمقدوره أن يعلنه!!

****

وإذاً فإن الله لم يره أحد قط - لا موسى كليمه ولا أحد من الأنبياء، وكل المرات التى أعلن فيها ذاته للبشر لا تخرج عن كونها تجليات وقتية رمزية جزئية، أما الرؤية التى يتحدث عنها يسوع المسيح هنا فهى الرؤية الحقيقية التامة وهى ما اختص به الإبن دون سواه.. ولذلك فإنه قام بالتخبير أى إعلان الله، وقد تفرد بذلك دون سواه، ومن ثم فإنه وإن كانت قد حصلت بعض ظهورات إلهيه قديماً لموسى ولغيره ولكنها كانت جزئية فقط ولا تحسب رؤية الله بذات مجده الجوهرى.

نعم لقد قيل عن موسى وشيوخ إسرائيل إنهم رأوا الله وذلك لأنه أراهم شيئاً من مجده على الأرض، ولكن لما طلب موسى المزيد أى أن يرى مجد الله الجوهرى أجابه الله بالقول:«لا تقدر أن ترانى - لأن الإنسان لا يرانى ويعيش » - وليس معنى ذلك أن الله غير قادر على إعلان ذاته بل إنه ليس هناك إحتمال لرؤية تجلى الذات الإلهية مباشرة إذ أن ذلك لم يكن ممكناً

بغير يسوع المسيح إبنه الوحيد، الذى بما له من الطبيعة الإلهية قد رأى، وبما له من الطبيعة الناسوتية إستطاع أن يخبر البشر بما رأى!!

ونتيجة لذلك فإن المسيح هو أعظم من يوحنا المعمدان بل واعظم من موسى ومن كل الكهنة والأنبياء الذين أعلنوا الله بنسب أو درجات محدودة، أما هذا فإنه هو الذى تجلى الله فيه وذلك لكى يكون الإعلان بطريق موافقة للبشر إذ أخذ جسداً وخاطبهم بصوت إنسان بغير تغيير أو استحالة - أفلا يكون هو إذاً الأعظم!؟

****

وإننا نرى من فاتحة رسالة العبرانيين أن أساس الديانة بوجه عام هو إعلان الله عن نفسه - وإن هذا الإعلان قد بدأ فى العهد القديم وكان ذلك على فترات متقطعة وبأشخاص عديدين كما جاء أيضاً فى طرق متنوعة متدرجاً وعلى درجات مختلفة من الوضوح فى الهامات داخلية وأصوات مسموعة ورؤى وأحلام وكذلك بالأوريم والتميم.. ولقد كانت لتلك الطرق انطباعاتها الفكرية على عقولهم ظهرت فيما عبروا عنه بالنبوة المتدرجة والتى تكاملت فى يسوع المسيح الذى كانت تتجه إليه باعتباره «المسيا» محور الإعلان الكامل عن التجلى الإلهى الذاتى وهو الإعلان المتفوق الذى تضمنته الطبيعة والضمير مما كان يحتوي على لمحات من صفات الله سواء قدرته فى الخلق والعناية وكذلك صفاته الأدبية المبكته للضمير فإن هذه كلها لا تقارن بما جاء به يسوع المسيح الذى قد تجمع الإعلان عن ذات الله وصفاته الأكملية فيه ...

وبذلك تتوج هذا الإعلان فيه وبلغ تمامه!! فما كان من قبل، وما هو حادث خارج المسيح من وجود إعلان فى الطبيعة والضمير لا وجه لمقارنته بما حدث فى العهد الجديد فى شخص يسوع « الذى أكمل الناموس والأنبياء» وقد استلمهما فوق جبل التجلى من موسى وإيليا..!!

وقد صدق قول سبينوزا الفيلسوف اليهودى عنه وهو:«كان المسيح هيكل إلهى فيه أعلن الله ذاته إعلاناً كاملاً»

****

* **هذا التجلى هو الإعلان الختامى الأخير:**

أما وان الله قد كلمنا أخيراً فى هذه الأيام بحسب الترجمة الفصحى - فإنما يدل ذلك على أن التجلى الذى ظهر فى

المسيح ليس بعده إعلان! فان تكليم الله لنا فى إبنه لابد أن يكون آخر ما عنده ليقوله، ومن ثم لا يكون لديه شيء آخر بعد...

فان المجال هنا ليس فيه رسل وأنبياء مبعوثين بعد لإحضار جزء من الحق المعلن لكل منهم على حدته! لأن الإعلان الآن فى الإبن قد أضحى كاملاً...

وذلك لكون الإبن ليس مجرد رسول ولا آخر وأعظم من أرسلهم الله، ولكنه شخصية فريدة النوع تكلم الله بواسطتها مباشرة ولا يزال...!!

وقد وصف سيدنا ذلك لتلاميذه بقوله:«لأن أنبياء كثيرين وملوكًا اشتهوا أن ينظروا ما أنتم تنظرون ولم ينظروا، وأن يسمعوا ما أنتم تسمعون ولم يسمعوا.»

****

لقد أضحى الإبن بذلك مركز وحدة الاعلان الكتابى بأكمله وتبدو عظمته فى أن كل الكتاب مشغول باكتشاف شخصيته! هذا ومن ناحية أخرى لم يكن بوسع أى نبى أن يحتمل نور هذا الإعلان الكامل الذى التقت أجزاؤه وأنواعه فى الإبن...

وإذ قد جاءنا هذا الإعلان فى يسوع المسيح هكذا لا يمكن أن يتغير بأن يؤخذ منه أو يضاف إليه شيء، حتى إنه **يستحيل توقع أى إعلان جديد بعده وذلك إلى نهاية العالم: فإن هذا الإعلان الأخير إنما هو إعلان نهائى معناه بصفة قاطعة إنه لا يوجد بعد ذلك أى إعلان آخر من الله! لقد كانت الإعلانات السابقة أضواء متكسرة لكن الآن وقد جاء الإبن فقد أشرقت شمس الحقيقة الإلهية بنورها الوهاج فى سماء الوحى - فأى إعلان يمكن أن يكون بعد ذلك مهما كانت إدعاءات تعاقب الأديان ونسخ اللاحق فيها للسابق دون التسليم بتكامل الإعلان فى الإبن وذلك لأغراض سيئة هى التقليل من شأن هذا التكامل والإدعاء عليه بالنقصان والزيف ولكن هذه كلها محاولات باطلة وهى مجرد عبث!!**

إذ هل هناك أسمى من هذه الحقيقة الغالية وهى أننا قد بوركنا بإعلان الله الكامل فى إبنه - وهل من غرابة إذاً فى أن يكون يسوع المسيح هذا الذى تجلى الله فيه هو الأعظم !!

****

الفصل الثالث

هو الأعظم لأنه صورة الله غير المنظور

«المسيح الذى هو صورة الله» (٢كو٤:٤)
«الذى هو صورة الله غير المنظور» (كو١:١٢)

* * * *

* **السر اللانهائى الغامض:**

الوصول إلى إدراك حقائق الوحى المكتوب لا يتم إلا عن طريق المقارنات التى نشأ من أجلها العلوم اللاهوتيه وكذلك علم مقارنة الأديان، كما كان للفلسفة دورها فى البحث عن الله.. وكل ذلك يدل على أن الإنسان مخلوق بغريزة التدين، وهى توقيع الله على كل نفس بشرية لتعرف به خالقها وربما نمت هذه الغريزة بسبب الخوف من المجهول، ومن الظواهر الطبيعية مثل الرعد والبرق ومن الوحوش ووجود الأرواح متمثلة فى الأسلاف! وإزاء هذه المخاوف كلها كان من الطبيعى أن يفكر الإنسان فى كائن أعلى يلجأ اليه يطلب منه الحماية ودفع هذه الأخطار عنه!

كان هذا هو أول تفكير العقل فى الله والوصول بذلك إلى الاقرار بوجوده – ولكن العالم بالحكمة (أى الفلسفة) – وهى مجال البحث العقلى لم يعرف الله – ولكن بعد أن أخذ العقل دوره وتوقف عند حده جاء دور الإعلان وهو الذى تفوق على العقل الذى ضلت به الشيوعية بانكارها وجود الله وكذلك الفلسفة الوجودية التى نّحت الله جانبا وجعلت الإنسان مكانه وهكذا تعددت الضلالات!

أما الذين قبلوا الإعلان ورأوه يحل معضلات منشأهم ومسيرتهم ومصيرهم فإنهم وجدوا أن البحث عن الله «الخالق» ليس هو بالمحال، ولكن العقل عن طريق الفلسفة تخيل الله فى حالة غموض وإبهام!

* * * *

تقول الفلسفة أن الدين هو التعطش إلى المستحيل إلى ما هو بعيد المنال، إلى ما يفوق التصور بل ما لا سبيل لتصوره– لأن الدين ينشد اللامتناهى وهو المستحيل بعيد المنال الذى لا سبيل إلى بلوغه أبداً..

ومع أن الفلسفة تصف الله بأنه النور الاعظم الذى يضيء أرجاء الكون ولكنها تقول أن كل ما حوله ظلام – وأن النور لن ينبلج إلا من هذا الظلام الشامل...

هذه هى الألوهية السلبية التى تخيلتها الفلسفة والتى تؤدى إلى معنى أن الله هو الصمت الأعظم أو الظلمة الكبرى!!

وقد ولد ذلك فى البشر المفكرين – بعيداً عن نور الإعلان – صورة غامضة مبهمة عن الله أملت فيهم الإحساس بأن فى الكون سراً لانهائياً خفياً هو نهاية الأشياء جميعاً، وهذا هو اللاهوت السلبى عن الله!!

وهكذا جعلوا الله فى حكم «المجهول» غير القابل للوصف، وجعلوا من ذلك حجاباً للسر الإلهى المستغلق على الافهام، وهو باطن فى الله، ملازم له، قائم به، ولا يزول عنه... وذلك لأن العقل البشرى فى هذا المجال لا يستطيع أن يفهم الموجود الأقصى لأنه قاصر من جهة، ولأنه متناه من جهة أخرى!! ومن هنا انتهى مطاف البحث العقلى إلى «الاله المجهول» الذى أطلقوا عليه اسم اللغز المحير – السر اللانهائى الغامض!!

وليس معنى ذلك أن الله هكذا كما وصفوه، بل هو بالأحرى كذلك بالنسبة لنا نحن.. وإذن فان «عدم القابلية للإدراك» هنا ليست صفة مطلقة لله، على نحو ما هو فى صميم ذاته، بل هى صفة نسبية بالقياس إلى عقولنا نحن فقط!!

ولذلك فإن الإعلان المكتوب يصف الله تعالى: – بأنه نور وليس فيه ظلمة البته وبينما العقل فى حيرته والفلسفة فى خيبتها إذ بنا نحن «أهل الكتاب» أصحاب الإعلان المكتوب قد وجدنا عن طريقه «الله» على حقيقته فى وحدانيته أولاً ثم فى ثالوثه!!

• التصورات التى يقدمها التنزيه البالغ:

يتابع التنزيه البالغ ما بدأته الفلسفة عن «الله»فيقول:«إنه من البديهات أن الله غير منظور، ولا يمكن أن يتحدد فى شكل ما، لذلك فإنه من غير المعقول أن نتكلم عما هو ممكن وما هو غير ممكن فيما يختص بالجوهر الإلهى، وهو يصل من ذلك إلى القول بأنه تعالى غير قابل للإدراك عن طريق التصور وان هذا سره الذى ليس فى وسع عقل أن يحيط به وأن سره وعدم قابليته للتصور صفتان مطلقتان من صفاته!!

ولذلك ارتبط التنزيه البالغ بنفى الصورة عن الله بتاتا، ومن ثم يستحيل معرفته على أى شكل يكون.. **إذ لا صورة له ولا هيئة مع أن ذلك بالنسبة لإدراكنا المحدود فقط، ولكن مثل هذا التجريد المطلق يجعل من الله تعالى لغزاً غير مفهوم قد بلغ فى مدى خطورته إلى القول: «أن الحق (أى الله) كان قبل أن يخلق الخلق فى عماء» – والمقصود بالعماء هنا الاستتار أو الاحتجاب – وهو حكم سابق لخلقه الخلق، الأمر الذى يقتضى الظهور عن طريق الخلق – وهو الظهور المنعكس لله سبحانه، يكشف عن مظاهر تجليات تصور ظهور الله فيها – ولكن هل يعنى ذلك أن الله سبحانه كان فى حاجة إلى ايجاد المخلوقات لكى تظهره!؟** إنه يكون بذلك عاجزاً عن الظهور بدونها مما يجعله مسلوبا من القدرة على الظهور وهى التى منحها لخلائقه – فإن كان الله غير قادر على الظهور، فكيف أعطى لخليقته هذه الميزة وهى ليست له!؟ وشبيه بذلك قولهم أن الله إنما أظهر صفاته فى المخلوقات التى خلق – مع أن ذلك يجعل صفاته تعالى محدثة أو كانت معطلة أزلاً إلى أن جاء الخلق فأوجد لها مجالاً للعمل، وهذا ظاهر البطلان يضاف إليه استحالة أن يكون هناك فصل بين الذات والصفات إذ لا قيام للذات بغير الصفات التى تدل عليها ومن ثم لا يمكن ظهور الصفات بدون الذات!!

****

وبجانب نفى الصورة عن الله فقد أضاف التنزيه البالغ مسألة أخرى وهى استحالة رؤية الله بغير حجاب:

وبحسب قول فيلون :«لا يمكن للكائنات أن تحتمل نور لمعانه الفائق بغير غطاء يحجبه عند ظهوره ومع أن الغزالى قد شهد للصوفيين بأن: «الحجاب قد أزيل بينهم وبين الله وانهم يرون الله ويتناجون معه... » إلا أنه هو نفسه استشعر صعوبة رؤية الله تعالى بقوله :«هذا وقد تحيّرت العقول فى كيفية رؤية وجه الله عز وجل» وذلك لان الصوفية نفسها حددت نقطة الوقوف فى الطريق إلى الله بقولها:

«لله نيفا وسبعين حجابا من نور لو كشفها لاحرقت سبحات وجهه ما انتهى اليه بصره (كتاب الإنسان الكامل جزء ١ ص ٣٠) ويقول مؤلف هذا الكتاب عن مراتب الحجب التى احتجب الله بها تعالى عن خلقه أن فى كل مرتبة منها ألف حجاب (أى أن السبعين حجاباً تصبح سبعين ألفاً) يعنى أن الواصل إلى

هذا المقام لا يتبقى له عين ولا أثر، وهى الحالة التى تسميها الصوفية «السحق والمحق» ويسمى ذلك الحد الواجب التوقف عنده «سدرة المنتهى» وهى نهاية المكانة التى يبلغها المخلوق فى سيره إلى الله تعالى، وما بعدها إلا المكانة المختصة بالحق تعالى وحده ليس لمخلوق هناك قدم لأن المخلوق هناك ملحق بالعدم!!

وقد أيد ذلك فيلون وهو فيلسوف يهودى بقوله: «إن الله بعيد عنا كل البعد ولذلك لا نستطيع أن نعلم عنه شيئاً أكثر من إسمه»: بل وصل التنزيه البالغ إلى قبول ما قررته الفلسفة من أنه ليس لله تعالى شكل ولا صورة ولا حجم ولا حد ولا إسم سوى انه المستحق للعبادة!!

وذلك لأنه ذو ذات شاملة محيطة لا حدود لها ولا قياس ولا حصر ولا نهاية!! فإن الذات الإلهى فى وجوده خفى على كل إدراك إذ هو محاط بهالة سرية تفوق كل ذكاء، ولذلك ليس للعقل أن يدركه تماماً على ما هو عليه.. ولذلك قال عنه أفلوطين أيضاً: «إن كل وصف لله بحدده، وأى مقارنة عنه فيما يختص بالعقل والجمال والكمال هى إدراكات بشرية إستعارية، ولكنها تنقص عن أن تصف تماماً جوهر الله» !!

* * * *

* إعلان الوحى المتكامل عن الله:

إن ما رأيناه فيما اتفق الرأى عليه من جهة تنزيه الله بنفى الصورة عنه لا يعنى أنه بلا صورة بمعنى مطلق - بل إن له صورة ذاتية يقوم بها وجوده الحقيقى، وهى صورة خاصة به وحده وهى من نوع فريد بلا مثيل ولا شبيه مما يجعل ذاته مغايرة بالطبع لسائر الذوات!! وهذا ما سبى عقول الأنبياء فخاطبه داود فى سفر المزامير بالقول: «يا الله من مثلك» ثم قوله سبحانه: «لأنى أنا الله وليس آخر. الإله وليس مثلى. (أش ٤٦: ٩) وقد قال لكليمه موسى حين طلب أن يراه أى بصورته الذاتية: «إن الإنسان لا يرانى ويعيش» (خر ٣٣: ٢٠)

وهكذا يذكر الكتاب المقدس أن جوهر الله تعالى غير منظور، ولكنه يذكر فى نفس الوقت أن له صورة أو هيئة ذاتية ولكن ليس فى مقدور الخلائق رؤيتها ولا يمكن طلبها لأنه ليس فى طاقة العيون المجردة أن تحتمل التطلع إلى بهاء مجدها.. يؤكد هذه الحقيقة قول السيد المسيح لمعاصريه فى إنجيل يوحنا ٥: ٣٧ «الآب نفسه الذى أرسلنى يشهد لى. لم تسمعوا صوته قط ولا أبصرتم هيئته»!!

* * * *

ولقد كان كلام السيد المسيح هنا تأكيداً لما احتوته الوصية الثانية من الوصايا العشر ونصها:«لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورة ما..»(خر ٢٠:٤)، ولقد حذر موسى شعبه من عبادة الصور والتماثيل على أساس انهم عندما كان يتلقى الشريعة لم يروا صورة ما، وأمرهم ان يحترزوا من نسيان عهد الرب بصنعهم تمثالا منحوتاً صورة شيء ما (تث ٤) لأن الوصول إلى إدراك صورة لله أمر مستحيل – وهو بدء الوثنية بصنعها صور وتماثيل تتمثل فيها الألوهية تقوم بعبادتها – ولكن كما سبق أن تبين لنا-بأنه لابد أن يكون لذات الله صورة جوهرية هى ماهية وجوده وما عليه الذات الالهية، وهى صورة مطلقة غير منظورة وغير مدركة، وهى فى هذا المعنى شكل غير معروف وهيئة غير معروفة، وأما بالنسبة لله فهى صورة معروفة لديه أى لدى أقانيمه الثلاثة وهى لكل منهم بحالة متساوية تامة بغير تقسيم أو استقلال أو تفريد!!

والصورة والهيئة هنا لهما معنى متقارب:«فالصورة هى ماهية الشيء من غير أن يحكم عليها بإثبات أو نفى، وأما الهيئة فهى الحال التى يكون عليها ذلك الشيء بعينه ولا يكون غيره من الأشياء..

ومن المعلوم أن المخلوقات ترتقى فى سلم الوجود كلما زاد نصيبها من الصورة المميزة إذ يبعث العقل فى الموجودات العاقلة الشوق إلى مصدرها الأول فتتحرك وتعلو بالحركة – أى تكسب فى كل حركة صورة أرفع من صورتها تقربا إلى تلك الصورة الكاملة «السرمدية»، صورة الله – أعلى الموجودات – وهى صورة لا يمكن حلولها فى الغير بل هى قائمة بنفسه ومن ثم لا يمكن أن تكون شيئاً غير ذاته!!

ولذلك وجدناه سبحانه يقول بلسان عبده أشعياء فى ٤٣:١٠ «قبلى لم يصور إله وبعدى لا يكون» – أى ليست هناك آلهة يمكن أن تظهر معه لا من قبل ولا من بعد.. وفى قوله فى ع ١٣: «وأيضاً من اليوم أنا هو» وترجمته التفسيرية هى: «قبل أن يكون اليوم أنا هو» مشيراً بذلك إلى يوم خلق الزمان والخليقة ومؤكداً به أنه هو الله الموجود الواجب الوجود تلقائياً بحالة سرمدية لا بداية لها ولا نهاية وليس كالذين ليسوا هم آلهة بالطبيعة»(غل ٤:٨) أى بحسب الوصف السابق الذى يختص به الله دون سواه!!

****

والمسيحية لم تناقض هذا التفسير، فلم تمس تنزيه الله فى جوهره، فهى لم تقل

بامكانية رؤية صورة الله الجوهرية أو أن يستطيع أحد أن يحيط به أو يدركه بل إن أئمة الدين المسيحى أكدوا منذ البداية أن لله سبحانه صورة سرمدية تتمثل فيها ذاته العلية، وهى تلك التى لا يحيط بها أى إدراك وهى ليست معروفة ولا مرئية إذ أنها تختص بالوجود الإلهى المطلق – أى ذات الله – وهى تنسب للآب، ويقال بشأنها أنها: «اللاهوت غير المنظور»!!

ولكن هل يبقى هذا الإله فى وجوده الخفائى سراً مغلقاً فى حالة انعزال تام عن خلائقه بأسرها بموجب هذا التنزيه البالغ!؟ وكيف يمكن أن يكون لهذا الإله المطلق – فى وجوده اللامتناهى واللامحدود – أى علاقة أو صلة بخلائقه المتناهية والمحدودة!؟ ومن أين وجد الحنين والشوق لرؤية الله فى قلوب البشر إذا كان من المستحيل أن يظهر لكى تتم رؤيته وإلا تبعثرت الخليقة وتلاشت اذ لا يكون لها قطب جاذب – وهو لا يمكن أن يكون آخر غير الله – حتى يشدها إليه ويضبطها فى مداراتها!!

* **يسوع المسيح صورة الله:**

هنا قد وجد الحل من جهة الاقتراب لله وكيفية رؤيته فقد تم ذلك فى يسوع المسيح:

هذا هو الأعظم ليس لأنه بلا مثيل فقط، بل لأن فيه ظهر التجلى الإلهى الذى نراه التمهيد أو المدخل لظهور الله فيه، الأمر الذى بموجبه نرى الوحى يصفه مرتين بأنه «صورة الله» الأولى منهما فى كورنثوس بدون عبارة «غير المنظور» والثانية فى كولوسى ملحقة بها – الأولى تشير إلى ربنا يسوع المسيح باعتبار أنه كأحد الأقانيم الثلاثة **«له الصورة الجوهرية» للألوهية**، واما الثانية التى ورد بها «غير المنظورة» فهى تعبير **عنه باعتباره «الصورة المنظورة لتلك الصورة الجوهرية غير المنظورة وهى ما يطلق عليها «الصورة الشبهية» – فهو صورة الله كالحق المطلق وأيضاً صورته تعالى كمن طبعت فيه الخليقة وكمن تستطيع الخليقة أن ترى الله بواسطتها وبهذا الجمع فيه بين صورة الحق وصورة الخلق أى الصورتين الجوهرية والشبهية نجد أنه لذلك هو الأعظم!! إذ فيه تم ربط الخليقة بالله!!**

****

والتساؤل هنا واجب عن من الذى يستطيع أن يحضر لنا صورة ذات الله إلا إذا كان هو الله نفسه حامل هذه الصورة وقادر أن يعلنها. هو القائم فى صورة الله. قال عنه العقاد فى كتابه عن «الله»

ص ١٥٩«فجاءه (أى السيد المسيح) إلى العالم بصورة جميلة للذات الإلهية»، وبالطبع لا يستطيع أحد أن يقدم هذه الصورة الجميلة للذات الإلهية إن لم يكن هو الله – وهذا إقرار ضمنى بأن يسوع المسيح هو الذى قدم فى شخصه هذه الصورة الجميلة للذات الإلهية وقد تفرد بذلك!!

ونظراً لذلك فقد قال عنه ستانلى جونز: لقد كانت حياة المسيح هى حياة الله نفسها فى إطار معالم بشريته، وكانت أخلاقه هى أخلاق الله معروضة على شاشة وجوده التاريخى، ومن ثم فاننى عندما أنظر إلى يسوع، أستطيع أن أقول بثقة وجرأة ماذا يكون الله!!

بل إنه من الغريب أن روسو – فيلسوف الثورة الفرنسية – قال: «إنه اذا كنا نفقد الإعتقاد بالله يجب أن نسترده ونستعيد إيماننا بالله لئلا يفقد الناس عقولهم» واستطرد إلى قول أغرب وهو: «أن هذا الإله الذى أنتظره لاؤمن به يجب أن يكون كيسوع المسيح» وهذا قول زعيم ثائر فيلسوف لاصلة له بالدين!!

هذا القطب الجاذب الذى يجذب الخليقة إليه إذ لا يصح أن يكون لها اتجاه جاذب لها سواه، قد أفادنا الوحى أنه يسوع المسيح: «هو القطب الجاذب الوحيد»، وباعتباره أقنوماً إلهياً (أى عين خاص فى اللاهوت) لذلك فإن عظمة الإله (الأحدى الجوهر) هى له لكونه ليس كائناً غريباً عن الله أو خارج عن جوهره بل نراه من ذات الله – ولذلك فإننا بينما نقرأ بأن الله لم يره أحد قط نقرأ أيضاً أن يسوع المسيح هو صورته المنظورة !!

ولذلك فإننا لم نترك الله عندما لجأنا ليسوع المسيح بل فى حقيقة الأمر لم نفصل بين الله ويسوع لأننا قد رأينا الله فى يسوع!!

وذلك لأن صورة الله قد تجلت فيه – هذا الذى جاء وصفه بأنه: « بهاء مجد الله ورسم جوهره» وحين شعت صورة الله فيه بالنور كما فى بللور فوق جبل التجلى سقط التلاميذ على وجوههم إزاء هذا المجد الذاتى الذى انعكس بهاؤه من داخله.. إنه الإستعلان الإلهى ليس فقط فى اعماله واقواله بل أيضاً فى ذاته ولذا استطاع يسوع أن يقول:«من رآنى فقد رأى الآب» فهل هناك مجد فى الوجود يفوق هذا المجد!؟ إذ أنه كما هو واضح من هذا القول مجد الله بعينه!!

* هذا المجد هو الذى رأيناه فى وجه يسوع المسيح ونحن ناظرين إياه بوجه مكشوف نتغير إلى تلك الصورة عينها – كما فى مرآة – وهذه المرآه هى الإنجيل الذى هو كمرآة رأينا فيها صورة هذا التجلى الإلهى الرائع، وحل فينا مجد الشكينا – أى السكينة – مجد الحلول الإلهى فنتغير من مجد إلى مجد بخلاف الذين إله هذا الدهر قد أعمى عيون أذهانهم لئلا تضىء لهم هذه الصورة القائمة...

* **نهاية المطاف فى هذا المجال :**

نستخلص مما سبق ذكره إستحالة أن يرى أحد الله من غير حجاب – إذ يستحيل رؤيته بعينه وجوهره لأن جوهره لا يُعرف ، إذ كيف يقتدر ذو الطبع المخلوق على رؤية ما ليس مخلوقا .. فإن من يرى الله بذاته فإنه يحيط به كله بحيث لا يخفى شىء منه على الرائى ، ولكن الإحاطة بالله مستحيلة على كل عقل مخلوق إذ أن هذا يُدرك ما هو على قدر طاقته ، وليس فى طاقة عقل المخلوق أن يبلغ فى ادراك الذات الإلهية تلك الحالة الكاملة المطلقة وذلك لأن وجود الله الغير متناهى لا يقبل فى حد ذاته إلا إدراكا غير متناه ، وليس لعقل المخلوق وهو متناه أن يدرك الله إدراكا غير متناه ، فاذاً لا يمكن أن يحيط بالله إذ هو موجود بلا نهاية وبحالة غير متناهية .

فهل نقف إذاً عند حد التسليم بهذا الوجود المطلق المحض على نحو ما هو الله فى ذاته ، أعنى تلك الحقيقة المجهولة أو الضباب المظلم كما يقول الشيخ الجيلى ، أم نقف عند حد ما قاله ابن العربى من أن : « نقابه – أى حجابه – إنما هو الوجود الظاهرى, وهو مجرد حجاب لوجوده فى وحدانية دون أدنى صفة » – الأمر الذى يصير الله به فى حكم المجهول غير القابل للوصف والمستغلق فى سر مطلق ! ؟

ثم إذا كان أهل التنزيه قد رأوه من المناسب أن يقولوا بوجود عشرات من أحجبة النور لمنع احتراق من يتقدم لرؤية الله ... أفلا يكون من الأنسب جداً عند ظهور اللاهوت أن يكون ذلك فى حجاب الناسوت حتى يقترب الله منا ويقرب لإفهامنا معرفته ولولا ذلك لاستحالت على أى مخلوق رؤية الله بتاتاً ولا الإقتراب إليه ولقاءه!!

ولقد أعترف بهذه الحقيقة أحد الربيين اليهود إذ قال :

« إن شيئاً واحداً أيها المسيحيون تفضلون فيه علينا ، أننا عندما نتصور

ذات الله تبدو لنا صورته غامضة مبهمة في الذهن ، أما أنتم فتستطيعون رؤيته في شخص يسوع المسيح » !!

****

وخلاصة القول أن يسوع المسيح بوصفه صورة الله غير المنظور ، هو استعلان الذات الإلهية بإظهار حقيقة وجودها وما لها من صفات ، أى أن صفات الله وأعماله قد أظهرت فيه بواسطة تعليمه وسيرته !! وواضح مؤيد من الوحى والواقع أن يسوع المسيح بالنسبة لهذه الصورة لم يرد بشأنه أنه صار تلك الصورة أو جعل إياها – لأنه ليس هو كآدم المخلوق على صورة الله !! إنه صورة الله – بحالة مطلقة – ولو أنها تجلت في حجاب الناسوت لكى تعلن لنا الله غير المنظور في شكل منظور – فباعلان هذه الصورة للخليقة في التجسد صار الله الغير منظور منظوراً ، فمن يرى المنظور فقد رأى الغير منظور وصارت رؤية الله بذلك ممكنة للناس !!

إنها ليست بعد كل هذا صورة وصفية كالتى أوردها ماكس ميشيل في كتابه «صورة الله» بقوله عنها : « إنها صورة الله الجميلة الحلوة التى رأينا فيها كل الحب والحنان .. » وإنما المعنى يمتد إلى التمثيل الكامل ، وكأن الوحى يريد أن يقول لنا : « أنظروا إلى يسوع المسيح ، وفيه سترون مجد الله وتجليه الظاهر ، فقد أتى إلى الأرض في صورة يستطيع الإنسان أن يراها ويفهمها » ونظراً لتفردها فإننا نتساءل : « لماذا لم تطلق صورة الله على غير المسيح ! ؟ » لا شك أن تلك الصورة بعينها ، صورة الله التى رأيناها في يسوع المسيح هى التى شدت انتباهنا ، وبالتالى صرنا نحن المؤمنين به جميعاً ناظرين إليها ، وبذلك فإننا نتغير بحالة تدريجية إلى تلك الصورة عينها ، لأنها هى التى خلقنا عليها أصلاً .. !!

****

ولذلك فهو عظيم هكذا ، وعظمته لم تستنفد ولن تنتهى .. لأننا فيه نرى معنى الله ومعنى الإنسان ومعنى الحياة ، ومعنى النظام الكونى كله ...

إنه عظيم لأنه مشحون بالمعانى العظيمة والنهائية – إنه محور الإرتكاز ونقطة الإنطلاق ، بدون نقطة انتهاء ، وحين نمسك به ، فان كل شيء يكون لا نهائياً ولا محدود !! لأن أئمة المفسرين في المسيحية قد عرّفوا الصورة هنا بأنها تعنى « الإنعكاس الذاتى للصفات النوعية في حال من الإظهار التام لا

يسمح بفقدان أى شىء من تلك الخواص » . فالصورة هى الكلى المطلق أى الكل على هيئة صورة ، وهى فعلية واقعية مما يقابل حقيقتها المطلقة ...

وعند التطبيق الكتابى نجد أن الله الآب غير المنظور قد ظهر فى يسوع المسيح .. فان صورة الله هذه تصف العلاقة السرمدية للإبن مع الآب ، فإن عبارة « غير المنظور » لابد أن تشير إلى جوهر الله السرمدى ، بينما لفظة « صورة » هى وصف لما هو منظور ، ومعنى ذلك أن الله الآب غير المنظور قد أظهر ذاته سرمدياً فى الإبن ، فهو التجلى الظاهر لطبيعته غير المنظورة ومن ثم فإن هذا الوصف يتضمن معنى الوحدة فى الطبيعة والجوهر ، فإن من أراد أن يرى مجد الله أى تجلى حضوره المبارك فإنه لن ينظره إلا فى وجه يسوع المسيح ...

فلا عجب إذاً إن كان يسوع المسيح هو الأعظم لكونه صورة الله!!

* * * *

الفصل الرابع

هو الأعظم لأنه بكر كل خليقة

« بكر كل خليقة ... الذى هو قبل كل شىء وفيه يقوم الكل ... لكى يكون هو متقدما فى كل شىء (كو ١ :١٥ :١٩)
« هذا يقوله الأمين الشاهد الإبن الصادق بداءة خليقة الله »
(رؤ ٣ :١٤)

* * * *

* **معضلة اتصال الله بالكائنات :**

هذه هى معضلة الدهور – كيف يعلن الإله الغير المحدود نفسه لمخلوقاته المحدودة ؟ لقد أسفر اجتهاد الفلاسفة فى حلها إلى خيبة أمل لأنهم عجزوا عن الوصول إلى إجابة هذا السؤال لانتفاء وجود الصلة بين الله غير المحدود ، وخلائقه المحدودة ، وعليه لم تكن وسيلة ما للإنسان أن يدرك الله ولا لأى مخلوق كائناً أياً كان !! وذلك لأنه ليس شىء من المخلوقات متحداً مع الله الذى لا شبيه له ولا شريك ، فلا يكون بينه وبين سائر الأشياء علاقة أو صلة لاستحالة وجود المشابهة النوعية بينه تعالى وبينها ، لأنه تعالى لو كان يحد لكان يلمس وتتم الصلة به ، وحيث أن ذلك مستحيل فكيف يتم إذن الاتصال بين الله الغير المحدود والخلائق المحدودة . بما فيها الإنسان !؟ فالذات الإلهية منزهة تنزيهاً مطلقاً عن الكمية والكيفية والزمانية والمكانية والمعية لأن الوجود الإلهى وجود شمولى مطلق لا يقبل التحيز بوجه من الوجوه ، فلا يقال عنه أنه داخل هذا العالم ولا هو خارجه– لا هو متحد به ولا حال فيه ، لأن الدخول والخروج والاتحاد والحلول كلها اعتبارات ونسب إمكانية محضة لا تجوز على الوجود الإلهى المطلق واللامتناهى !!

ومن ثم فإن الذات الإلهى لا يمكن أن يتحد بشىء من الكائنات المخلوقة – لا فى وحدة منها ولا فى مجموعها لأنه مطلق الوجود وهى محدودته ، فهو ليس خارج الوجود ولا هو محصوراً فيه – **ومع أن عقل الإنسان يستثبت من وجود الله إلا أنه يقر بأن ذلك الوجود الكامل المطلق أعلى من أن يدركه ،**

فكيف تتأتى الصلة بين هذا الخالق ومخلوقاته !؟

* * * *

لقد التمس البعض عذراً فى عدم ظهور الوجود الإلهى الخفائى بتفاوت العقول ، لكن أكبر العقول كأصغرها هنا تتساوى فى عدم إدراك أو رؤية الله الذى من أوصافه : « أنه غير المحوى ، غير المستحيل ، غير المحدود ، غير المرئى » وهذه هى صورته الجوهرية على حقيقتها فكيف السبيل إلى الوصول إليه ... كما أنه لاينفع هنا أن يقال أن التنزيه البالغ – بحسب الوصف المتقدم لا يعزل الخالق عن المخلوقات لأنه كمال مطلق ليس له حدود ، فلا عازل بينه وبين موجود ، لأن قول كهذا يتنافى مع المعنى الصحيح للتنزيه نفسه وهو الإنعزال التام والمنع الكلى للصلة ولذلك يصورونه تعالى سلطاناً عظيماً لا يقرب منه ويستحيل الإتصال به ، الأمر الذى يتنافى مع طبيعة ومعنى كل دين !!

* * * *

ولكن فى الوقت الذى فيه يقطع التنزيه البالغ كل صلة بين الله وخليقته ، تواجهه حقيقة أخرى تقف تجاهه وتعارضه بكل شدة وهى أنه فى قرارة نفس كل إنسان شعوراً قوياً بوجود الله ، الذى عن كل واحد منا ليس بعيداً . (أع١٧ :٢٧) ، وذلك لأنه من غير المعقول أن يبقى الله معدوم الصلة بالخليقة مما يدفع إلى التساؤل «لماذا أوجدها إذاً ! ؟» ولا يجوز هنا قبول الفكرة القدرية بأنه ملأ الطبيعة بالزنبرك – كالساعة – وتركها تعمل أوتوماتيكياً لوحدها ، وكأن فيها قدرة ذاتية لتأدية ذلك فى حين أنها موجودة من العدم !!

* * * *

نعود إلى قلب المشكلة إلى هذا السؤال المعلق وهو : «أتدرى الخليقة بمن أوجدها وخلقها ؟ أله هو علاقة بها ، وكيف تمت وظهرت هذه العلاقة ؟ أم وجدت هذه الخليقة بلا علاقة مع خالق لها وبالتالى هائمة فى هذا الكون الفسيح – مما يسفر عن نتيجة محيرة إذ تفقد الخليقة مدلول معنى وجود خالق لها – المدلول الطبيعى المفترض وجوده ، الأمر المستحيل فى حد ذاته فإننا نعلم فى كياننا ما يؤيد إعلان الوحى عن الخالق العظيم الذى خلق هذه الخليقة ولم يتركها – أما الحل فنرى أن المسيحية تقدمه فيمن وصفه الوحى بأنه (بكر كل خليقة) مما يتطلب أن نتقدم إليه ببطء وتؤده نظراً لدقة هذا الموضوع وأعماقه البعيدة المدى !!

* * * *

* **حل الديانة اليهودية لهذه المعضلة :**

لقد قدمت اليهودية الحق الأول الأساسى لكل دين وهو الإعلان عن وجود « إله واحد » – وهذا لا يفتأ حقاً إلى الأبد ... ولكنها توقفت عند هذا الحد ووصفت الله بأنه « إله محتجب » ! ولذلك فإن إعلانها عنه كما عند أهل التوحيد المقيد ، لم يكن كافياً للإتيان بالبشر إليه ..

يؤيد ذلك ما نادى به سليمان بن جبيرول بالقول : « إن الله منزه عن الإتصال بالعالم تنزيهاً تاماً»

وكذلك ما جاهر به فيلون وهو فليسوف يهودى أيضاًبقوله : « الله بعيداً عنا كل البعد لا نستطيع أن نعلم عنه شيء أكثر من اسمه– فهو بلا صفات وبلا علاقات ..»

ومع ذلك كان على الديانة اليهودية التى نزهت الله هكذا أن تجد حلاً لطريقة اتصاله بالعالم فوجدته فى فكرة الوساطة التى شرحها فيلون نفسه بقوله :

« إن الله لايتصل بالعالم ولا يعنى به مباشرة بل بواسطة وسطاء – فالوسيط الأول هو « اللوغس » الكلمة أو العقل ، وبهذا الوسيط خلق الله العالم ويعنى به .. والوسيط الثانى هو الحكمة التى تدير العالم وتقوده إلى اللوغس .. أما الوسيط الأخير فهو آدم الذى ولد منه البشر جميعاً .. »

****

كانت اليهودية موفقة فى عثورها مبدئيا على الوسيط المباشر بين الله والعالم – وهو الكلمة – وكان قد سبق لها أن عرفت الله « يهوه » بأنه بكر العالم ، وكان اليهود يقصدون بذلك أنه السابق فى وجوده لكل الكائنات المخلوقة ... وجاء بولس وأخذ نفس الفكرة عن يسوع المسيح – فأعلن عنه بالوحى أنه « بكر كل خليقة » – وذلك ليس بطريقة فردية تفصيلية فحسب ، بل بطريقة جماعية مطلقة ، فهو – بحسب الترجمات – ليس بكر كل فرد من الخليقة بل بكر جميع الخلائق ... (NOT EVERY BUT ALL) ومدلول ذلك يعنى الأولوية المطلقة فى الوجود السابق لكل الخلائق .. وكان معنى ذلك أن يهوه ويسوع هما واحد وقد أطلق عليهما هذا اللقب الفريد ، ومن المعلوم أن البحث فى كل ما يتعلق بالحقيقة الإلهية يجب أن يخضع للإعلان وإلا كان مضلّة للأفهام كما حدث بالنسبة لهذا اللقب الفريد وغيره الأمر الذى إذا لم نثبت من معناه أمكن لأصحاب الضلالات أن يسقطوا

غير المنتبهين منا فى حبائل وشباك ضلالاتهم !!

****

* أصل بدعة المخلوق الأول ومتاهاتها :

لقد عرفنا بما سبق بيانه أنه من المستحيل أن يدرك كنه الله أو يعرف حقيقة وجوده المطلق اللامتناهى إلا من كان كائناً إلهياً – غير مخلوق – وهو الذى سبق أن رأيناه كصورة الله ، هذا الذى تجلى فيه الوجود الإلهى للكائنات المخلوقة – هو وسيط الخلق الوحيد ولا يمكن الخلط بينه وبين الخليقة إذ أن مثل هذا الخلط باطل ومستحيل ، ولذلك فقد ميزته المسيحية منذ البداية عن سائر الكائنات المخلوقة ، لأنه من طبيعة الله وجوهره الموجود أزلياً – قبل أن توجد الخليقة كلها – كائن عند أبيه ومعه وفيه بحالة سرمدية مطلقة أسمى من أن تصل إليها العقول ، ولذلك فإن العظمة التى لله قد رأيناها فيه ذاتية وليست مكتسبة فمن يُعظّمه إذاً يعظم الله نفسه !! وهو بذلك الوسيط الوحيد حلقة الاتصال والإرتباط بالله ، ولذلك قيل عنه أن الله قد صنع به العالمين وهو الحامل لكل الأشياء بكلمة قدرته ، وفيه يقوم الكل – ولذلك فقد وجدنا فيه الحل لمشكلة الدهور !!

****

* ولكن إبليس أصل الضلال ومنشؤه ، مشوه الحق لكى يحيله ضلالاً ، محاولاً بذلك استبدال الضلال به والعمل على وضعه مكان الحق ظن أنه قد وجد مرتعاً لضلاله فى المعنى الحرفى للفظة « البكر » وهو « المولود الأول » ، فقام باختلاق بدعة « المخلوق الأول » وذلك على أساس مزعوم بأن الولادة فى اللاهوت عندهم تعنى « الخلق » دون أى واسطة أى بما يسمونه بالخلق المباشر : هذا الإدعاء السخيف قد جعلهم حيارى بين الخلق والولادة لأنهم يقولون على الفور أن الله أبوه أنتجه من ذاته – ولسنا ندرى كيف تكون هناك خليقة فى جوهر الله الخالق وأين وجدت ! ؟ والخلط بين المحدث والأزلى محال بطبيعة الحال – فكيف ينتجه أباه من ذاته ثم يكون هو بذلك أول ما خلق الله !!

****

ولأجل كشف بدعة « المخلوق الأول » هذه وهى التى أخذت شكل « أول خلق الله » منسوبة لغير يسوع المسيح فيما بعد ، على أساس الزعم بأن هناك مخلوق أول قبل الملائكة وقبل آدم وهذا أمر مختلق لأنه فى

فجر الزمان بدأت الخليقة بخلق الملائكة معاً – بما فيهم لوسيفر « زهرة بنت الصبح » الذى تحول بسقوطه إلى الشيطان – وذلك بحسب النص الذى يقول : « عندما ترنمت كواكب الصبح معاً وهتف جميع بنى الله» (أى ٣٨ :٧) ، وعند بدء التاريخ البشرى خلق الله آدم وحواء بالخلق المباشر ، ومن بعدهما الجنس البشرى بحسب قانون التناسل الطبيعى «... وازاء ذلك لا نجد مكاناً لهذا الفكر الشرير بأن المسيح هو أول المخلوقات ، وقد سبق أن رأينا أن لفظة «البكر» قد أطلقت على يهوه «الله» قبل أن يوصف بها « يسوع المسيح » مما لا يمكن أن تضعه فى نطاق المخلوقات» !!

أما منشأ هذه البدعة فقد كان فى نطاق « الغنوسية » وهى مذهب فلسفى يعنى « المعرفة » ظهر فى قلب اليهودية وانتقل منها إلى المسيحية عند نشأتها وذلك فى أيام الرسل أنفسهم :

لقد جعل هذا المذهب مهمته البحث عن كيفية التوسط بين الله وخلائقه ، وزعم أن هناك ثغرة بين الله وغيره من الكائنات تمنع الاتصال به ، ومن ثم ابتعت الغنوسية نظرية « الفيض » الذى به أوجدت « ايونات » أو ما اطلقت عليه « العقول العشرة » كل عقل منها يحرك الآخر وهى تكمّل اتصال الله بالعالم وقد وصف بعضهم هذه البدعة بقول نسبه إلى الله هو : « ما خلقت شيئاً أشرف من العقل » لكن هذا كله هراء .. على أن هذه البدعة اعتبرت « العقول العشرة » مجموعة من الملائكة يملأون بها الثغرة أسماها يسوع المسيح وأدناها آدم أبو البشر وأطلقوا عليها تسمية « الملائكة المقربين » وجعلوا يسوع أحدهم وإن كان أسماهم ... ومن هنا نشأت عبادة هؤلاء الملائكة فى ضوء معرفة رتبهم ودرجاتهم ، وهذا بالطبع دفع إلى عدم التمسك بالمسيح وحده كالوسيط وهو ما حذرت منه رسالة كولوسى ٢ :١٨ فشددت على منع عبادة الملائكة بوجه مطلق !!

• المسيح الآريوسى والكشف عن حقيقته :

ما سلف ذكره فتح الباب لاختراع « المسيح الآريوسى » ومحاولة فرض وجوده ، ولكنه ظل اختراعا لا أثر للحقيقة فيه رغم بذل الآريوسية كل ما عندها من جهد لجعل هذا « المسيح المخترع » حلقة الاتصال بين الله والإنسان مع إنه فى نظرها ليس هو بإله ولا هو بإنسان .. لقد استنبط آريوس من مدلول

عبارة : « بكر كل خليقة » أنه يدخل المسيح فى نطاق الخلائق فحسبه واحدا منها – باعتباره بكراً – لأن ذلك يعلن عنه بأنه أولهم بمعنى ما ... وبناء على ذلك جاء تفسير آريوس الهرطوقى عن « البكر » بأنه هو « المخلوق الأول » ،

وهذا التفسير بدعة كاذبة لأنه لا يمهد السبيل قط إلى حل معضلة الوساطة التى نحن بصددها ، وذلك لأن « المخلوق الأول » مهما بلغت عظمته وسمت صفاته لا يزال مخلوقا وبينه وبين الله ما لا يحد ولا يقاس ، وعليه لا يقدر أن يدرك الله لأنه لا صلة بين المحدود وغير المحدود ، وباعتباره مخلوق فهو متناه ، واذاً كيف تتلاءم هذه الحال مع الغير المتناهى ! ؟ فضلا عن أن بدعة « المخلوق الأول » تؤدى إلى عبادته ، وهذا هو الشرك الذى لا يقره دين من الأديان ، بل يعتبره جميعها أنه من الخطايا التى لا تغفر !!

وقد رفض أثناسيوس التسليم بهذا الباطل الذى ذهب اليه آريوس فى ذلك الوقت وتبعه فيه خلفائه « شهود يهوه » حاليا ، ودفعه ذلك إلى الاحتجاج عليه بالقول :

«كان تعليم آريوس مساومة مستحيلة إذ حاول أن يثبت التوحيد على حساب **التثليث ، ومع ذلك فبتسليمه أن المسيح كان مخلوقا يجب أن يعبد ، كان هو نفسه يناقض ذلك التوحيد الذى كان يدافع عنه – لأنه إذا كان الرب مجرد مخلوق يعبدونه كمخلوق – فكيف يكون بينهم وبين الوثنيين أى فرق !؟ فان عبادة من هو نصف إله وثنية من نوع جديد** ، وبسبب هذا الوهم عينه يتهم أصحاب التوحيد المطلق المسيحيين بالشرك ، أى أننا جعلنا فى الخالق شىء مخلوق مع أن هذا الخلط بين الخالق والمخلوق أمر محال من كل وجه – ومن ثم فإن الإيمان المسيحى ليس هو فى مسيح شبه إله ، بل فى ذاك الذى له طبيعة الله وجوهره ، ولذلك فهو كائن إلهى تماماً وصفه الوحى بالقول : « إن هذا هو الاله الحقيقى » (ايو ٥ :٢٠) وهذا بعينه ما حققه قانون الإيمان فى القول عنه : « المولود من الآب قبل كل الدهور . نور من نور . إله حق من إله حق . مولود غير مخلوق . مساو للآب فى الجوهر !! »

واضح مما سلف ذكره انه وان كان هذا الإسم العظيم « بكر كل خليقة » يبين علاقة المسيح بالخليقة ، لكنه فى حقيقته أبعد من أن يعتبر المسيح مجرد « خليقة » لكونه الخالق السابق

فى وجوده لكل الخليقة والذى له بسبب ذلك التفوق على الملائكة والبشر أجمعين مما يستحيل معه اعتبار أن هذا اللقب عنه يتضمن اعتباره « مخلوقا » أو أى تنقيص له على الإطلاق !!

****

ومن ثم فقد سقط ادعاء « شهود يهوه » الكاذب بأنه كان ليسوع وجود سابق فى السماء قبل مجيئه إلى الارض فى بشريته باعتباره كائنا روحانيا مخلوقا من الله تماما كما كانت الملائكة – وهو فى وجوده السابق لبشريته « بكر كل خليقة » وهم يستطردون إلى القول « بان الله خلقه فى البدء فى صورته وشبهه وهو يفوق الملائكة مقاما ورتبة – ويليه الروح القدس أول من قام هذا الابن المصنوع بخلقه ، وان لهما المقام الأول بين الخلائق لانهما وان يكونا غير مشتركين فى الجوهر الالهى إلا أن طبيعتهما تشبه طبيعة الله ...

فى حين قد تبين لنا مما سلف ذكره بجانب ما سيظهر لنا فيما بعد كيف أن المسيح يمتاز عن سائر المخلوقات بكونه أعظم منهم جميعا وانه كان قبلهم وانه كما كان اليهود يصفون « يهوه » بانه « بكر العالم » بمعنى انه هو الذى خلق واوجد كل الأشياء ، فهو علة وجودها والتسلط عليها ، هكذا للمسيح نفس الوصف هنا والنصوص الوارد فيها ذكر « البكر » هنا تؤكد ذلك . مما يجعل الادعاء بأن المسيح هو شخص آخر غير الله وأقل أمرا غبيا لا تسانده هذه العبارة التى يرتكزون عليها !!

****

• **خلفية ضلال التمسك بالمعنى الحرفى :**

لاشك أن أحد منابع الضلال الرئيسية التمسك بالتفسير الخاص أى بالمعنى الحرفى – دون محاولة استجلاء مدلوله – وكما رأينا قد وجدت ضلالة « المخلوق الأول » منشأها فى تفسير لفظة « البكر » باعتبار أن معناها الحرفى هو « المولود الأول » ، فقلبوه إلى المخلوق الأول باستبدال لفظة « الولادة » بالخلق ، مع أن المعنى الذى يجب أن نفهمه من لفظة « البكر » هو : « المولود قبل كل مخلوق » – وهذا ما ادركه اوريجانوس وإعتبره إعلان عن لاهوت الإبن كالسابق لكل الخليقة يدل على ذلك ما تلا هذه اللفظة وهو : « فإنه فيه خلق الكل » – أى لكونه بكر كل خليقة ، تم خلق

الكل فيه – مما لا يدخله فى نطاق الأشياء المخلوقة ... لأنه بحسب هذا الإعلان الوارد عنه ، وجدناه هو الخالق لكل الخليقة ، ومن المستحيل ، أن يكون الخالق مخلوقاً أو المخلوق خالق لأن الادماج بين الخالق والمخلوق أمر محال ، ولذلك فهو خالق ، ولا يمكن أن يكون واحداً من الذين خلقهم وإلا يكون قد خلق نفسه – وهذا ظاهر البطلان – بل هو من المستحيلات ، لأنه هو الموجود بذاته قبل أن توجد الخليقة كلها بل هو موجدها وخالقها !! مما لا يدخله فى نطاق الاشياء المخلوقة ، لانه المولود الأول من جوهر اللاهوت قبل كل خليقة ، فكل هذه الخليقة قد صدرت عنه أما هو فانه المولود الأول المتميز عنها جميعها – فهو وحده الصادر من الآب صدورا داخليا فريد النوع وغير مدرك – أما الخلائق فقد صدرت صدورا خارجيا بالخلق ، وحتى لو اعتبرت أبناء الله – أى الملائكة والبشر – والآب آب لهم ، إلا أنه المتميز عنهم جميعاً بكونه « المولود الوحيد » – مما يجعل الولادة من جوهر الآب قاصرة عليه وحده دون سواه ... ومن ثم فإن المناقشات الجدلية التى لجأ إليها البعض لتجنب معنى « الولادة » فى البكر والوحيد أياً كانت الأسباب وأهمها اعتبار المضلين لها « أنها الخلق وإنما من ذات الله .. » لا مكان لها هنا ، لإنها انما اخترعت لمجابهة هذه الضلالات !!

****

ومثل ذلك ما قال به بعضهم وتوقفوا عنده من أننا نرى فى الصورة التمثيل وهى تتعلق باللاهوت ، وأما فى البكر فإننا نجد معنى التكريم وهو يتعلق بالخليقة ، وأنه دخل بالتجسد مشهد خليقته وله رفعة وسمو البكر ، وإن هذه الكرامة هى حقه الطبيعى – أى أنه لم يصبح بكراً إلا عند التجسد : فى حين أن لقب « الإبن الوحيد » يدل على علاقته الفريدة بالآب خارج حدود الفكر البشرى وبلا إشارة لأى من الكائنات المخلوقة ، **أما « البكر » فيدل على تمييزه عن كل الخلائق اطلاقاً وإعلان اسبقيته عنها وأنه مصدرها فى الوجود ، وبذلك فانه يجمع بين علاقته بالآب ورئاسته على الخليقة – وهو فى لقب « البكر » نراه كالنموذج المثالى الذى تقرر أن تتشكل بموجبه كل الأشياء المخلوقة فضلاً عن مركزه الممتاز ومقامه الرفيع عليها ، مما يجعله فوق كل الخلائق فى العظمة ...**

وهذا هو المراد من قول الله فيه بلسان داود : « وأنا أيضاً أجعله بكراً أعلى من ملوك الأرض » (مز ٨٩ :٢٧) ولذلك جاء عنه هذا التصريح الفريد فى القول : « متى أدخل البكر إلى العالم يقول ولتسجد له كل ملائكة الله» (عب ١ :٦) وأما بالنسبة لشعبه بمشابهتهم صورته « ليكون هو بكراً بين أخوة كثيرين » (رو ٨ :٢٩) ولذلك فإن من هؤلاء تتكون « كنيسة أبكار » (عب ١٢ :٢٣) ولكنه بكرهم جميعا ... وكما جاء هنا فى النصوص الملحقة فى كولوسى ١ :١٨ بأنه « بكر من الأموات » ... نجده هو أيضاً هنا باكورة القيامة!!

وقد ذكرت لفظة « بكر » مرتبطة باسرائيل وافرايم فى موضعين هما « اسرائيل ابنى البكر » و « افرايم هو بكرى » للدلالة على امتياز الافضلية لكليهما ...

أما بالنسبة للمسيح فهى بوجه عام تعنى ليس فقط « الأسبقية فى الوجود » بل وأيضاً فى المقام « أى رئاسته وحقوقه المطلقة على الخليقة كلها ، ولذلك فإننا نراه . بكراً فى الخليقة - وفى الكنيسة - وفى القيامة .

ولذلك فقد تضمن هذا اللقب العظيم من جهة اسبقيته على كل خليقة أى وجوده السابق المطلق ومن جهة أخرى سلطانه على كل الكائنات !!

وكما قيل عنه ضمن هذه النصوص فيما بعد : « لكى يكون هو متقدما فى كل شىء » أى ليكون هو وحده الشخص الذى يشغل المكانة الأولى - أى الذى يأخذ الصدارة !!

****

* **حقيقة معنى البكر بربطه بالصورة :**

استلمت المسيحية من اليهودية الإعلان عن « الإله الواحد » وحافظت عليه ولكنها قدمت معه الحق الثانى وهو « وجود الوسيط » - وهما معاً أساس الدين الصحيح - وربطت الحقين معا ، وهو ما تميزت به ودعت إليه الضرورة لحل معضلة الدهور فأوجدت بذلك الوساطة المطلوبة بين الله والعالم ...

ومن المعلوم أن الاديان والفلسفات قد أجمعت على ضرورة وجود وسيط ، ولكنها توقفت عند حد إعلان وجود الله وتعثرت فى بحثها عن هذا الوسيط الذى تميزت به المسيحية :

وسيط تميز بأنه « صورة الله غير المنظور » أى الصورة الممثلة لله التى يظهر فيها ذاته لخلائقه ويصبح بها

بكر هذه الخلائق : ويكون بذلك بمثابة حلقة الاتصال التى يستطيع البشر بواسطتها أن يعرفوا الله ويصلوا إليه ..

وقد تم ذلك فى المسيح الذى بواسطته فقط أمكن رؤية الله وتم الوصول إليه ، وبدونه يكون ذلك أمراً مستحيلاً !!

وهكذا جاء إعلان الوحى عن هذا الوسيط فى فاتحة رسالة كولوسى – وأنه لتعترينا الدهشة هنا لقيام مفسرون عديدون بالفصل بين « الصورة » و « البكر » وجاء شهود يهوه فاستهوتهم عملية الفصل هذه ، الأمر الذى جعلهم يستبعدون لفظة« صورة » كلية ، ويكتفون بعبارة « بكر كل خليقة » ويجعلونها مرتعاً لضلالتهم بالقول : « وكان يسوع فى وجوده السابق بكر كل خليقة أى أول مخلوقات الله» ..

على أننا لكى نجابههم هنا ، فان علينا أن نعود إلى ربط العبارة كلها معاً والاقرار على هذا الاساس بالضرورة بما اتفق على تسميته « بالصورة الشبهية » التى ينفرد بها هذا الوسيط ، لأنه لما كانت الصورة الذاتية لله غير منظورة كان لابد من وجود صورة أخرى كمظهر لها ، وهى التى ظهر فيها الإبن من قبل التجسد بل وقبل كل الخلائق ولأجلها قد تسمى الإبن « بكر كل خليقة » إذ ربط الوحى فى هذه العبارة بين « بكر كل خليقة » وبين « صورة الله غير المنظور؟! » ، فلا عجب إذا تسمى إبن الله الأزلى « بكر كل خليقة » وذلك بالنسبة لهذه الصورة الشبهية التى ظهر فيها للملائكة عند خلقهم وللانبياء من بعدهم ... !!

****

فمن البديهى أن الملائكة – وهم أول الخلائق العاقلة وقد خلقوا قبل الإنسان فتحوا أعينهم لأول مرة على منظر عرش والجالس عليه شبه انسان – وهذا الشبه يمثل التجسد العتيد الذى هو اتحاد الأزلى بالمحدث ...

اذاً كان هذا المحدث موجوداً فى « الصورة الشبهية » قبل خلق العالمين ولذلك تسمى « بكر جميع الخلائق» فهذا المحدث الذى ظهر شبهه قبل وجود المحدثين قد دعى بحق بكراً لهم – وبذلك قد وجدنا بأن الله غير المنظور قد ظهر فى شكل خاص أعلن به ذاته بواسطة إبنه الحبيب عن طريق « الصورة الشبهية » – **وهذا هو سبب ورود لفظتى « البكر والصورة» معاً !!**

فليس البكر إذاً مجرد لقب احترامى يقف عند حد السيادة والرئاسة فحسب ،

بل هو صورة الله – أى « الصورة الشبهية » التى خلقنا عليها أى على مثالها وشبهها ..

ولذلك لا يقال عن المسيح هنا انه صار « صورة الله» بل انه إياها أى مظهر اللاهوت الكامل – وهى صورة مطلقة لم تبدأ عند التجسد ولا انتهت بانتهاء حياة المسيح الأرضية ، والمسيح يختلف بها عن « آدم » الذى قيل عنه بانه خلق على صورة الله ...

ولا شك أن هذه الأقوال توبيخ صارم للمخاطبين عبدة الملائكة إذ يرفع المسيح فوقهم جميعا ويملأ الثغرة المزعومة التى ارتأت الغنوسية ضرورة ملئها بكائنات مزعومة تربط السماء بالأرض فى حين وجدنا يسوع المسيح قد وضع يده على كليهما » .

****

ولا يفوتنا هنا أن نشير إلى النص الآخر الذى صدرنا به هذا الفصل وفيه يصف يسوع المسيح نفسه بأنه « بداءة خليقة الله فهو لا يعنى أنه أول خليقة الله كما ذهب المضلون فى تفسيرهم لكلمة « بداءة » بل يعنى أنه « مبدىء خليقة الله » – **ولذلك ورد هذا النص فى ترجمات أخرى من بينها الترجمة اليسوعية « رأس خلق الله»، وذلك لا يدخله ضمن الخلائق كأنه واحداً منها – ولو كان اولها ، بل يجعله « المصدر » الذى صدرت عنه جميع الخلائق بأسرها ، فهو بهذه المثابة رأس المخلوقات باعتباره خالقها !!** وقد قصر بعضهم معنى هذا النص الذى نحن بصدده على الخليقة الجديدة أى أنه رأسها ومبدؤها فى مواجهة فشل كنيسة اللادوكيين ... ولكن هذا تفسير ناقص ، لأنه بموجب الصورة الشبهية نراه بداية الخليقتين القديمة والجديدة ، فالنسبة لهما كليهما معا هو الرأس والمصدر على حد سواء إذ هو الصورة الأصلية المتكاملة فى الخليقتين معا ... **ولذلك وردت كلمة « بداءة » فى الأصل اليونانى « آرخى » وهى تعنى الرأس ، الأمر الذى تحققناه بما ورد فى كولوسى ١ :١٨ فى القول الوارد عنه بالاطلاق ونصه : « الذى هو البداءة »**

ومن ثم فإن هذا الزعم الذى ارتآه – آريوس وتمسك به خلفاؤه « شهود يهوه » لا يتفق مع التفسير الصحيح وهو يصطدم مع وصفه : « بأنه البداية والنهاية الأول والآخر » – هذا الوصف الذى يتحاشون ذكره فى كتاباتهم لأنه يقوض ضلالتهم من أركانها ولم يكن من

حقهم أن يضيفوا إلى النصوص ما ليس منها وما لا تستدعيه معانيها !!

* * * *

ولقد كان من المناسب اختيار هذه الصورة الشبهية (على هيئة انسان) رغم اشتراك البشر والملائكة فى كثير من النواحى – لأن الانسان ولو أنه أقل درجة من الملائكة باعتبار ما هو عليه بجسده إلا أنه أسمى باعتباره نائب الله لدى الخليقة المادية وحلقة الاتصال بين الخليقتين المادية المنظورة والروحية غير المنظورة ، بل لقد سما على الملائكة ليس لأنه بالقيامة سيكون مثلهم بأجساد روحانية – غير مادية فحسب ، بل لأنه من بين المفديين ستظهر « عروس المسيح » التى ستقترن به روحانيا وأبديا ...

فلا غرابة إذاً فى أن يسوع المسيح المتفرد بالصورة الشبهية التى خُلق عليها الانسان هو الأعظم لكونه وهو فى هذه الصورة – صورة التجلى الالهى المنظورة – بكر كل خليقة بوجه مطلق !!

* * * *

الفصل الخامس

هو الأعظم لأنه خالق الكل

« فإنه منه خلق الكل ما فى السموات وما على الأرض ما يُرى وما لا يُرى سواء كان عروشاً أم سيادات أم رياسات أم سلاطين . الكل به وله قد خلق . . الذى هو قبل كل شىء وفيه يقوم الكل . . لكى يكون هو متقدما فى كل شىء»
(كو ١ :١٦)

* * * *

*** مشكلة المقابلة بين وجود الله ووجود الكائنات :**

قبل أن ندخل فى مشاكل كل المشاحنات بين الأديان حول من الذى خلق العالم ؟ وأيهما أيسر قبولاً قيام الله الواحد الأحد بخلقه أم هو الله المثلث الأقانيم هو الذى قام بذلك ؟ وما دور كل أقنوم منهم فيه ؟ ولماذا خلق الله العالم ؟ وكيف تم خلقه ؟ قد وجدنا أن بؤرة التجاذب والتنافر فى عالم اليوم إنما هى« يسوع المسيح » وبينما تزداد الكتب المضادة له ، نجد أن القلة هى التى ترد ، لأن الهجمات ضده قد جاءت من داخل المسيحية وخارجها واتفقت على أن تسلبه أمجاده – مما دفعنا إلى مثل هذه الحلقات التى تكشف عنه كالاعظم ، لأنه وإن كان ليس هناك أعظم من الله بالطبع «فالعظمة لله»إلا اننا قد وجدنا فى عشرة نواحى تتضمنها هذه التأملات عشرة من أهم الجوانب التى يتصف بها الله ، ولا يمكن أن تكون لسواه ، مما يحتم أن يكون المسيح هو الله دون حاجة إلى ابراز ذلك فى شكل من التحدى من قبل البعض باعطاء عنوان لمثل هذا الموضوع هو : «هل المسيح هو الله ؟» فلنترك هذا الجدل جانباً الآن – فنحن نرد عليه تباعاً فى حلقات هذا التأمل دون حاجة إلى تحدى أو إثارة – وانما علينا هنا أن نبدأ أول مشكلات الخلق وهى : **« مع ضرورة تمييز الله عن العالم – ماذا يكون كل منهما بالنسبة للآخر!؟ . فإننا نعلم أن الكون فى صميمه هو مجموع الاشياء المترابطة فيما بينها جميعاً . . وأنه إذا وجد كائن أو موجود لا تجمعه أية علاقة بالكائنات أو الموجودات الأخرى الماثلة فى العالم لما كان جزءاً من الكون :**

ونعلم أن الله ليس جزءاً من الكون وأنه رغم وجوده فى كل شىء فى كل مكان وفى كل لحظة من الزمان إلا انه أيضاً متعال عن العالم وبعيد عنه فى نفس الوقت إذ هو مختلف عن المكان والزمان والاشياء كل الاختلاف!! ولكن هل معنى ذلك انه إله لا تجمعه بالعالم أية علاقة على الاطلاق! ؟ هذا محال – ومع ذلك فقد ذهب أهل التوحيد المطلق إلى القول بأن لا صفات ولا علاقات تصدق عليه ، لأن نسبة هذه إليه تتعارض تعارضاً تاماً مع القول بتنزيهه ولانهائيته!!

وذلك لأن أية علاقة من العلاقات تستلزم على الأقل حدين تقوم بينهما العلاقة – وفى هذه الحالة سوف يكون الحدان هما الله والعالم ! ولكن اذا كان العالمُ من الله بمثابة الغير ، فإن اللهسيكون محدداً من قبل العالم . . لأن أية علاقة كائنة ما كانت من حيث انها واجبة بين الله والعالم ، فإنها تستلزم أن يكون العالم شيئاً آخر بالنسبة إلى الله ، وإذ ذاك فانها إنما تفضى حتما إلى القضاء على لانهائية الله ، فإنه بالتالى بسبب وجود العالم فانه سبحانه لن يكون لامتناهيا ، لأن اللاتناهى يستوجب أن يكون ذلك الذى ليس له غير على الإطلاق!! لأن واجب الوجود ذاتياً – وهو مطلق الوجود بإعتباره اللامتناهى – يجب أن يكون مستقلا تماماً ، ومن ثم لا تكون الرابطةبينه وبيننا بأمر ضرورى ، مما يجعله ألا يكون فى الإمكان اسناد أية صفات وبالتالى لا يكون هناك مجال لأية علاقات مع هذا الموجود الاسمى والمطلق!؟

ولكن يتنافى مع ذلك أن مثل هذه العلاقة التى ظهرت فى الخلق لابد من ان تضع الله فى صميم المجرى الزمانى ، وهذا يجعله جزءاً من النظام الطبيعى ، فكيف أمكن الجمع بين هذين الأمرين المتناقضين أى النظام الطبيعى الخاص بالزمان والنظام الالهى الذى هو نظام الأزل ، واين إذاً نقطة التلاقى بين اللازمان والزمان!؟

وبالرغم من توقف العقل هنا عن ايجاد حل لهذه المشكلة فقد رأى بعضهم إزاء ذلك بأن : « الوجود المطلق لكى يتعين يتحتم أن يكون ذى حد – أى يكون فى مقابل شىء مُميز عنه، لأن التعين معناه التحدد ، والتحدد معناه وجود حد ، ووجود الحد يقتضى أن يكون ثمة « آخر » ومن ثم فان هذا الآخر لا يقوم تعين « اى إثبات وجود خاص لله بدونه»!!

ولكن الحد فى ذاته يتضمن تناقضا لأنه وإن كان يعين حقيقة الموجود «الله» ولكنه يدل على وجود « الغير » أو

« الآخر » ولكن من وجه آخر فإن اللامتناهى مع أنه من أجل أن يصبح موجوداً حقاً لابد أن يقبل التحدد الذاتى ، إلا أن ذلك ينفى وجود « الغير » لأن الوجود اللامتناهى وجود كلى مطلق مكتف بذاته ولا مكان معه لهذا «الآخر»!!

****

لكن الأديان تنسب لله علاقات مكانية وزمانية وسببية . . فهى تقر أن الله فى السماء وفوق السموات ؛ ثم هو حاضر فى كل مكان ، ولكنه أيضاً خارج المكان – فهل المكان شىء آخر بالنسبة اليه أم أنه ليس هناك أى جزء من أجزاء المكان خارج الله . . .!!

أما العلاقة الزمانية فهى أنه موجود قبل جميع العوالم ، كما أنه خلق العالم فى لحظة . . . ومن المعلوم أن خلق الزمان معاصر لخلق العالم ، فلابد اذاً من أن تكون هناك لحظة بدأ بها الزمان ظهر فيها العالم إلى حيز الوجود ، ولابد من أن تكون قد وجدت قبلها فترة لازمانية لم يكن فيها العالم موجوداً . . .

أما العلاقة السببية فهى علاقة العلة بالمعلول المغاير لها!! فهل هذه اللغة باسرها لغة ذات طابع رمزى حتى تكون العلاقة بين الله والعالم مجازية لا حرفية – أما اذا تحققت هذه العلاقة فعلاً منذ بدء العالم فاين جواب العقل اذاً عن كيفية ذلك!؟

قال موسى ابن ميمون – الفيلسوف اليهودى : « ان الله هو علة وجود العالم ، والعالم حادث ، لكن اثبات ذلك بالبرهان أمر عسير . . . ولولا أن الوحى قد سبق وقال أن الله خلق العالم ، لكنا قد قلنا أنه قديم »!

وقال توما الاكوينى المفسر الكاثوليكى : « إن حدوث العالم مسألة يفصل فيها الوحى ، ولا يتأتى إثباتها بالبرهان »!

****

هذه هى مداخل مشكلة ايجاد الله للكائنات وقد حارت فيها العقول وثبت عجزها عن ادراكها – فكيف بها تحاول لدى البعض أن تحل الحقائق المرتبطة باللاهوت المسيحى بأى وجه من الوجوه ، إذ ليس لدى البشر طاقة عقلية تصل بهم للوصول إلى معرفة كنه الله لا على سبيل ما سردناه ولا فى أى ناحية أخرى مما ينتقدون فيه المسيحية بغير وجه حق فيما آمنت به عن طريق إعلان الوحى وهى فى حالة التسليم الايمانى بأن « الوحى

فوق العقل » لانه ليس للعقل السيطرة على « الحقيقة الالهية » مهما كان منطقه واجتهاداته، وإنما قد افادنا الوحى بما عجز العقل عن الوصول إليه ، فقد تنازل سبحانه وأعلن لنا عن ذاته فى كتابه ما تستطيع عقولنا احتماله!!

ومن ثم فان الرد الأمثل على كيفية وجود الكائنات مع الله الكائن المطلق اللانهائى الذى لا يقبل وجود آخر معه ، ليس هو ما قال به ابن سيناء – الفيلسوف– من إن العالم قديم بقدم الله وأزلى معه لاستحالة ذلك عقلا ومنطقا إذ من اين للمخلوقات ذات الوجود الامكانى والفانى أيضاً أن تكون أزلية مع صاحب الوجود الذاتى اللامتناهى السرمدى الدائم!؟ ومثل هذا الادماج هو مبدأ « الحلولية » التى تعتقد بأن الله فى كل شىء وكل شىء فى الله ، وأن الله والكون شىء واحد بعينه – الأمر الذى هو نوع من الكفر بالله أما صحة الإعتقاد فهى أن الله صاحب الوجود المطلق هو الذى أوجد هذه الموجودات المحدودة من كل وجه دون أن نعرف كيف أو نُخضع ذلك تحت عقولنا . .!!

* * * *

*** مشكلة كيفية تكوين العالم وسبب خلقه :**

لو أن الباحثون فى مشاكل « الخلق » وقفوا عند حد نصوص الكتاب المقدس التى تحدثت عنه وعلى رأسها ماورد فى أول آية تسطرت منه فى تكوين ١ :١ ونصها : «فى البدء خلق الله السموات والأرض» لما ظهرت هذه المشاكل التى مررنا بأولها ويليها هنا الحيرة فى كيفية تكوين العالم ، وكذلك فى سبب خلقه :

لقد قيلت أقوال كثيرة لتأييد إنكار تكوين الله للعالم بطريق مباشر وهكذا كثرت الافتراضات فى هذا المجال دون جدوى . . . نبدأها هنا:–

*** أولاً : ما ذهبت إليه الفلسفة من القول :**

أ– بحدوث تطور فيه تعالى به أوجد الخلق وهو عند أصحابه تطور إرادى يستخرج به الله من ذاته الكون كما يستخرج الإنسان من نفسه فعله الارادى :

وأن الله خلق الخليقة من ذاته فيجعل بها ذاته منظوراً وهو غير المنظور ، ويتخذ لذاته ماهية وطبيعة وهو يفوق الماهية والطبيعة ، ويصير عالما مخلوقا وهو خالق

العالم – وهذا ظاهر البطلان لانه أحد اشكال الحلولية ، وهو يؤدى إما إلى أزلية العالم أو عدم أزلية الله وأنه محدث كالمخلوقات!!

ب– ومن بين حالات التطور المزعومة نظرية « الفيض » : ومضمونها « أن الكون قد أنتج عن انتشار الروح الالهية وانقسامها » ويدخل فى نطاق هذه النظرية الزعم بأن الله أوجد العقل من ذاته ، والعقل عاون على إيجاد عشرة عقول أولها من الله ثم من بعضها بعض يختص كل منها بجانب معين من الخلق . .!!

جـ– ومنها اعتبار كلمة « كن » الأمرية حادثة :

فقد قال المعتزلة بأن : إرادة الله فى الخلق والتكوين ليست أزلية . . . وهى فى المكان الوسط بين الخالق الأزلى ، وبين العالم المخلوق الحادث!!

د– ومنها الزعم بوجود وسطاء مع الله يساعدونه عند الخلق على تكوين العالم الأمر الذى أوصل شهود يهوه إلى القول بأنه كان مع الله كائن آخر قام بتكوين العالم وهم يرون ذلك فى العبارات التى تفوهت بها « الحكمة » فى أمثال ٨ فيقولون :

إن ما ورد فى هذا الموضع يشير إلى أصل يسوع . . وإنه لغة مجازية تجسم الذى خلقه الله – أى يسوع – كمخلوق روحانى قبل وجوده البشرى – وبصفته الحكمة فى وجوده السابق لبشريته يمضى يسوع قائلاً : « **انه كان عنده (اى عند الله) صانعاً** » (ع ٣٠) **وهم يستطردون إلى القول : وهكذا كان بواسطة هذا الصانع – مرافقه الأصغر حسب تعبيرهم – خلق الله الكل القدرة كل الأشياء الأخرى . . .**

وهم بهذه الاقوال الكفرية يهينون « يهوه » الذى يدعون الشهادة له – إذ كيف يمكن أن يكون « يهوه » الله هذا وهو كلى القدرة عاجزاً عن خلق كل الاشياء حتى أنه يضطر إلى خلق معاون أو مرافق – طبعاً أصغر منه على حد قولهم – ثم يفوضه فى خلق العالم !؟

أما العبارات التى يؤولونها على هوى تفسيرهم فانها تشير بلا ريب **إلى شخص يسوع المسيح كمن له الوجود السابق للخليقة بلا بدء وعن تميزه عنها بطبيعة الحال إذ انه من المستحيل ان يكون خالقها ، وفى نفس الوقت جزء منها لاستحالة الخلط بين الخالق والمخلوق ولا بين وجودهما لإنعدام وجود**

التشابه . . وأما قوله : « الرب قنانى (أى اقتنانى) » وتعنى « امتلكنى » – وهم يجعلونها صنعنى لتتفق مع غرضهم الشرير ، وذلك لكى يجعلوا الإبن المتكلم هنا شخصاً مخلوقاً لـه بـداءة – فإنهم كاذبون فى هذا التفسير فإنه قد فاتهم أنهم به يجدفون على الله أكبر تجديف ، لأن المتكلم هنا وهو الإبن إسمه « الحكمة » – أى حكمة الله – فهل حكمة الله مخلوقه ولها بداءة !؟ إن كان الأمر كذلك حسب أقوالهم المخترعة – فهل كان الله بلا حكمة قبل أن يخلق أو ينشىء أو يصنع لنفسه الحكمة!؟

أليس من المنطق المعقول والمقبول أن الحكمة هى ملك الله الخاص أزلياً لا من وقت معين ، لأنها من خصوصياته أى مميزاته الخاصة الذاتية الملازمة له أزلياً إذ باعتباره الإله الأزلى . . الحكيم وحده (رو ١٦ :٢٧) وذلك بسبب كون الإبن الذى هو الحكمة هنا هو الرفيق الأزلى عند الآب ، الملازم له بدون مفارقة!!

أما كلمة « أبدئت » التى يتعللون بها فانما هى فى معنى « أظهرت أو تجليت» – وذلك فى أول طريقه من قبل اعماله منذ القدم ، ولذلك ورد عنه على الفور القول :« منذ الأزل مسحت » ع٢٢ ، وكنت هناك « ع٢٧ عند خلق المصنوعات فى بدء الخليقة – وتكشف بقية النصوص هنا عن توجه هذا الابن الذى هو « حكمة الله » لا إلى الخلق فقط بل وإلى الفداء إذ تصل إلى حد القول : « ولذاتى مع بنى آدم » ع٣١

* أما عن سبب خلق الله للعالم فقد تناقضت فيه أقوال الوحدانية المطلقة : اذ جاء عنه الحديث المنسوب لله بقوله : « كنت كنزا مخفيا لم أعرف ، فاحببت أن أعرف ، فخلقت خلقاً وتعرفت إليهم فبى عرفونى» – وهذا الحديث يجعل الخلق ضرورة لكى يظهر الله ذاته به ويصير معروفا – وهذه الاغراض ان صحت (والعياذ بالله) فإنها تؤدى إلى وجود نقص فيه (وعلى الأقل فى اظهار ذاته) وحاجته إلى استكمال هذا النقص بالغير ، وحاشا لله من ذلك لأنه لا يتناسب مع كماله المطلق واستغنائه بذاته عن كل شىء سواها ، ولذلك جاء حديث آخر يناقض الحديث السابق ونصه :« كان الله ولا شىء معه ، وهو على ما كان عليه كائن » أى أن الخليقة التى خلقها وأعطاها

الوجود كأن لا وجود لها بازاء عظمة وجوده وبذلك لا يكون قد خلقها عن ضرورة أو احتياج . . .

وأما الجواب الذى وصل إليه البعض فى المسيحية فهو : « أن الله تعالى – بالخلق – لا يكون قد انتقل من حالة السلب (السكون) إلى الايجاب (أى العمل) ، بل ان الخلق هو مجرد مظهر من مظاهر عمل صفاته الأزلى بينه وبين ذاته ، وهذا لا يقتضى حدوث أى تغيير فى ذاته كما أنه ليس هو مجرد وسيلة لإعلان ذاته وصفاته وإنما هو نتيجة طبيعية لعمل صفاته كاعلان عن وجوده الذاتى . . . وازاء كل هذه الحيرة بالنسبة لمشاكل الخلق وسببه نقول : « ما دام الأمر هكذا وهو يتحدى نطاق العقول – فلماذا تجدون صعوبة ما فى أن يحدث الخلق عن طريق « الثالوث » الأمر الذى سيظهر لنا جليا صحته عندما ننتقل فيما يأتى إلى حقيقة اشتراك الأقانيم الثلاثة فى عملية الخلق

* * * *

*** الخلق بالنسبة لأقانيم الله الثلاثة :**

عندما سرد الوحى قصة الخلق أعلن لنا فى فاتحة الكتاب المقدس عن الله وكلمته وروحه (تك ١ :٣-١) ، وهذا الإعلان يحققه داود النبى بقوله : « بكلمة الرب صُنعت السموات وبنسمة فيه كل جنودها » (مز ٣٣ :٦) ، والكلمة هنا إذاً ليست مجرد تلك التى تعنى كلمة الأمر أى لفظة « ليكن » التى قالها الله تعالى عند خلق الكائنات ، بل – هى إبنه المساوى له فى الجوهر – إذ هو القوة الناطقة فى اللاهوت – وقد اشار إليه داود فى موضع آخر بالقول :« كلمتك يارب تدوم فى السماء وإلى الابد » ، كما أشار إلى الروح أيضا بقوله : « ترسل روحك فيُخلقون؟! » – فهذا اعلان أكيد عن الأقانيم الثلاث الشريكة فى الإبداع!!

هى كذلك لأنها واحدة فى الجوهر – إذ جوهرها واحد فلا يمكن لأى أقنوم منهم أن يكون منفصلا فى ذلك الجوهر الفريد ، لأن كلا منهم إنما يوجد متحداً ومرتبطاً وكائناً بالآخر!! ولذلك فإنهم متوحدون فى الارادة والقوة والفعل بلا فرقة بينهم فى شىء من ذلك على الاطلاق – ولهذا فإن أعمالهم الإلهية مشتركة فما يقوم به أقنوم منها بعمل لا يكون بغير الأقنومين الآخرين ، فما يعمله إذاً أحد الأقانيم يحسب للأقانيم الثلاثة بسبب وحدانيتهم فى الجوهر الواحد الذى لهم

– فاذا أريد بقول ما أقوم منها فليس معنى ذلك اخراج الاقنومان الآخران إذ لا انفكاك للابن والروح القدس عن الآب!!

وهنا فى مجال الخلق نجد أنه منسوب للآب ، لكن الابن والروح القدس مشتركان فيه (تك ١ :٢ مع يو ١ :٣) فهذه الخليقة العظيمة التى تمجد الله وتسبح بحمده إنما هى نشاط مباشر للوجود الإلهى للثالوث الاقدس فى الذات الالهية الواحدة!!

فاذا كان الآب قد أراد خلق العالم وهو باعتباره المصدر الفكرى لهذا الوجود ، أى صاحب المشروع ، فان الابن هو الذى قام بالاشراف على عملية الخلق فهو مهندس المشروع أو المخطط له ، والروح القدس هو المنفذ الفعلى لانه هو الذى بث الحياة فى المادة، وأخرج بذلك الصورة إلى الفعل!!

وعلى ذلك يكون الثلاثة أقانيم مشتركين معاً فى خلق الخليقة ليس باستقلال بل بالاشتراك معاً ، ولذلك خلق الله العالم ليس ككونه ثلاثة بل باعتباره واحداً ، لكون طبيعته الواحدة – منظورة فى الأقانيم – وهى بداية لحركة واحدة ، لأنه من اللازم أن يكونوا ذوى الطبيعة الواحدة ذوى فعل واحد أيضاً . . . وذلك لكونهم جوهر واحد غير منقسم وذات واحدة منزهة عن الاعراض ، وأن أقانيمه تعالى متميزة الوظائف والاعمال ولكن بغير تفرد أو استقلال!!

****

*** الأوصاف التى يعلنها الوحى عن يسوع المسيح كالخالق : بعد أن أشار الوحى إلى ما هو عليه يسوع المسيح بالاطلاق كصورة الله الغير المنظور بكر كل خليقة يقدم بعدئذ وصفاً مطلقاً لمجد المسيح الذاتى باعتبار كونه « الخالق » بقوله : « فإنه فيه خلق الكل » وهذا يمنع أن يكون المسيح ضمن المخلوقات . . .**

ونرى فى هذه الآيات كيف يواجه الرسول ضلالات المعلمين الكذبة التى أشاعوها عن « المسيح » ، فأبان بها أولاً ما كان عليه فى الجوهر منذ الأزل باعتباره «صورة الله» وما كان عليه منذ بدء الخليقة باعتباره « بكر كل خليقة » – وهذا يرينا الإبن فى الأزل المطلق بقدرته المطلقة عند نقطة بداية الزمن إذ كانت الأشياء المخلوقة توشك أن تبرز إلى حيز الوجود ، دعاها إليه وأعطاها وجودها . .

ومن ثم فان الثلاثة حروف الواردة هنا عنه فى الاصحاح الأول من رسالة كولوسى وهى :

« فيه – به – له » تتضمن معنى متتابع وهو :

« البداية – والقوام – والنهاية » أى أنه « الأصل – والسبب – والغاية » وشبيه بهذا ما ورد عن الله فى رومية ١١ :٣٦ « لأن منه وبه وله جميع الأشياء أى أنه سبحانه : « المصدر والمقوم والهدف »!

« هذه الثلاث حالات تتضمن كل علاقات الله مع خلائقه – ولا فرق هنا بين حرفى « فيه » و« منه » حسب ورودهما فى النصين ، لأن المسيح قال عن نفسه إنه منه (من الآب) وفيه أى من جوهره ولم ينفصل عنه ، مع أنه تميز فى وجوده معه – وذلك دليل على أن الإبن مساوٍ للآب فى مجال الخلق هنا كغيره من المجالات!!

****

ونبدأ هنا بالعبارة الأولى من هذه العبارات الثلاث وهى : « فانه فيه خلق الكل » – الفاء هنا رابطة له بلقبه « بكر كل خليقة » ، وهى للتعليل أى أنه بمقتضاه ، – دفعا لتوهم أن يكون المسيح مجرد مخلوق ، وبياناً لاستحالة أن يكون الخالق مخلوقا – قد تم خلق كل ما خُلق بحسب صورته الموجودة فيه ، فهذا مما يبين سبق وجوده والشمول التام لخلقه كل الأشياء مما يستحيل معه اعتباره ضمن الخليقة!!

أما كلمة « الكل » فهى تعنى الكون بكل ما فيه ، وهى لفظة لصيغة الجمع غير العاقل وتعنى « جميع الأشياء » أى أن كلها خلقت فيه . . . وهذا يعنى أن المسيح وحده فوق الكون كله إذ هو خالق الكل بقدرته – ويرد بعد ذلك حصر شامل مفصل للخليقة مبتدئاً باعظم الأشياء المخلوقة التى كان يمكن للناس فى جهالتهم أن يتصوروا أنها لم تخلق فيه، وانها ذات قدرة وسلطان مثلما له ، فى حين أن سلطانه مطلق!! فالتفصيل هذا يورد : « ما فى السموات وما على الارض ، وما لا يُرى – وفى هذا إعلان لقوة الله غير المحدودة وحكمته الفائقة إذ هو (أى المسيح) قد وصف بأنه – «قوة الله» و« حكمة الله – وهذا يمنع كل المنع من القول بأن المسيح جزء من الخليقة ، إذ أن فيه خلقت السموات وسماء السموات (الجلد – والكواكب – والنجوم – والارض وكل ما عليها) . . . ما يُرى وما لا يُرى تضمين كامل للكل بالنظر إلى حقائق

المخلوقات من مادية وروحية والمنظور لنا منها إنما هو جزء صغير بالنسبة لغير المنظور!! مما يدخل فيه مراتب الملائكة أياً كانت رتبهم سواء عروش (مخلوقة) أم سيادات أم رئاسات أم سلاطين فانه هو صاحب السلطان المطلق على جميعها لأنه خلقها!!

فلفظة « فيه » إنما تعنى اعتباره المركز الخالق أى الأصل لكل موجود (أى **أرشيف الخليقة – بكونه العقل الإلهى المودع فيه جميع صور الكائنات إذ هو مصوّر الجميع) وهذا يتضمن فكرة البداية أى المبدأ الذاتى لإعلان الله وإتمام فكره فى خلق الوجود . . مما لا يمكن قبول القول باعتباره خليقة ما ، إذ كيف يكون ذلك وكل الأشياء موجودة فيه أزلاً ، وهو الذى يدل على أن له وجود مسبق عن كافة الأشياء إذ ليس للوجود الحادث وجود إلا فيه ، فكل الموجودات لها وجودها فيه ، إذ أنه هو الذى سبق أن رآها وصورها ، باعتباره بحسب قول الوحى عنه – مصور الجميع وذلك حتى لا يدخل الحدوث على الله سبحانه وتعالى ، ومن ثم فانه الأساس المثالى لكل وجود وإذ هو كذلك فكيف يمكن أن يجعلونه مخلوقاً!؟**

وغاية الرسول هنا أن يبين أن الذين عبدوا الرتب الملائكية بالاكرام الذى لا يجوز لغير المسيح فانهم بذلك قد احتقروه ، أما هو تبارك إسمه فهو أعظم من أعظم المخلوقات بما لا يقاس!!

* * * *

* **أما العبارة الثانية فهى : الكل به قد خلق : وفى قوله « به » نرى قدرته الفائقة كمهندس الكون** – وهى تفصل مقدما الحدود القائمة بينه وبين الخليقة، باعتباره خالقها ، فتميز بينه وبين جميع الخلائق لتقرر عدم امتزاجه بالكون ، بينما هى تشدد من الجهة الأخرى على الفكر بأنه **واسطة إظهار القوة الإلهية** . . . فلقد أظهرت الغنوسية الاهتمام الشديد بالرتب الملائكية لدرجة نسبت إلى بعضها مهمة الخلق واحتقرت بذلك مقام المسيح ، ولكن الأمر ليس هكذا ، **لأن المسيح هو المصدر والاصل لهذا الخلق ، والواسطة الوحيدة التى تم بها ، فهو أعلى من كل هذه الرتب!!**

إذ أن حرف الجر « به » يعنى « بواسطته » أى أنه هو المشرف على تنفيذ مشروع الخليقة الذى إراده الآب ، ومن ثم فقد جاء القول :« به كان كل شىء » (يد ١ :٣) وأيضاً « الله خالق الجميع بيسوع المسيح » وكذلك القول : « حسب قصد الدهور الذى

صنعه فى المسيح يسوع ربنا » (أف٣ :٩،١١) وعبارة « قصد الدهور » إنما تعنى أحسبة الأزمنة أى ترتيب أدوار التاريخ الزمنى!! وليس فى ذلك أى تنقيص لشخصية المسيح – كما يزعم المرجفون – وإنما تشريف مطلق فريد فى كونه أداة التنفيذ الوحيدة التى تم بها عملية الخلق، بدأت به وهى متدرجة فيه إلى النهاية!!

* * * *

* **أما العبارة الثالثة وهى : « له قد خلق » ، فهنا حرف آخر معناه أن كل ما خلقه إنما خلقه لنفسه ولأجل مجده – أى أنه هو الغاية أو الهدف الأخير** : ولذلك فان كل الخليقة خاضعة له ، ولا غرابة فى ذلك ، لأن قوله السابق : « فيه خلق الكل » يؤكد أنه كان سابقاً لكل الخليقة أى لكل الموجودات بأسرها ، **وإذا كان الكل فيه وبه وله فمن يكون يسوع إذاً غير الله!؟**

وهكذا خرجت الخليقة منه إذ كان يقوم بصنعها وهكذا هى تتحد معاً لتعود إليه – فكما أنه منشىء الوجود كذلك هو هدف وغاية كل موجود ، وهو بذلك مركز الوحدة فى الصدور والجمع معاً . . . وهذا يفسر لنا لقب « الأول والآخر » المنسوب إليه ، والذى ورد فى أشياء ثلاث مرات متعلقة بالأجيال والخليقة والنبوة عن « يهوه » كما ورد فى سفر الرؤيا منسوبا ليسوع المسيح مع لقب آخر وهو : « البداية والنهاية » ، مما يؤكد تطابق هذا الوصف على « يهوه » العهد القديم و« يسوع » العهد الجديد على حد سواء – ومعهما لقب « السرمدية » ولذلك فان « شهود يهوه » يتجنبون ذكر هذا اللقب الذى ارتبط بهما ويلحقهما وهو : « يقول الرب الكائن والذى كان والذى يأتى القادر على كل شىء » (رؤ ١:٨)

* * * *

* **أما قول الوحى عنه : « الذى هو قبل كل شىء » ، فإنها عبارة لا تشدد على أسبقية وجوده فقط بل على كيانه المطلق – فهى تصرح بوجوده الأزلى قبل خلق جميع الأشياء** . . ولا يقال هنا « الذى كان » بل « الذى هو » وهى عبارة فى الأصل غاية فى القوة والتأكيد تحقق أن له فى ذاته وجود سابق لكافة الأشياء . . . إذ ما دام هو قبل كل الاشياء ، فانه بذلك كائن قبل الزمان فى الأزل المطلق!! إذ هى بحسب الأصل اليونانى « هو بعينه » أو « هو

نفسه » كائن قبل كل شيء . . وإذ هو كذلك فانه سابق للكون بأسره ومن ثم فهو سبب وعلة وجوده!! فبينما الضمير الشخصى « هو » يثبت شخصيته ، فإن الفعل المستتر فى اللغة العربية يثبت وجوده قبل كل الخليقة ، لأن العبارة هنا مطلقة غير مقيدة بزمن وهى عبارة واضحة جلية تماماً . .

* **أما قوله :« وفيه يقوم الكل » ، فانها تبين أن وجود الأشياء من بعد خلقها لا يتدعم فى حالتها الحاضرة إلا فيه وهو بذلك الحافظ والمحرك لكيان ووجود ونشاط وعمل كل شيء فى الخليقه وذلك دائما أبداً . . . فهو « قبل كل شيء » تأكيد لكينونته الأزلية لا منذ بدء الخليقة ، وأما « فيه يقوم الكل » فهو تحقيق لاستمرار الاشياء التى خلقت على النظام الذى خلقه عليه ، وهى بدون ذلك تتلاشى وتعود إلى العدم** . . . والرسول بذلك ينسب الخلق والحفظ كليهما للمسيح ، ولذلك لابد أن يكون المسيح هو الله إذ كيف تكون كل الكائنات كائنه فيه ومتحدة معاً فى وحده متكاملة لا تنفصم ولا يكون معنى كل هذا أنه ليس أقل من الإله الرسمى!! إنه بذلك مبدأ التماسك لهذا الوجود بحكم الناموس الكونى الضابط وناموس الجاذبية المحرك – مما يحفظ كافة الاشياء فى مواضعها وينظم حركة الوجود المتحرك!! وخلاصة ذلك أنه أصل الالتصاق والتماسك فى الكون ولولاه لاختل نظامه واعتراه التشويش ! وبالتالى فانه هو الذى يدير مجرى كل الأفعال البشرية والأمور الطبيعية!!

****

ومن ثم فقد قيل عنه بعد كل هذا هنا « لكى يكون متقدماً فى كل شيء » أى ليعطى له الإعتبار – كمن يستحق أن يكون له المقام الأول ، قيل هذا عنه رغم يقينيه تنازله ليوحد فى أقنومه طبيعة بشرية بلاهوته ويكون بذلك فوق كل أعمال يديه – وهكذا يصرح الوحى هنا بأربعة حقائق عنه :–

١– أن يسوع المسيح هذا هو خالق الكون

٢– أنه قبل كل الخليقة وقد خلقت به الكائنات

٣– أن كل ما خُلق إنما خُلق له بالاطلاق

٤– وهو أيضاً الحافظ والضابط لكل الموجودات

وواضح من كل هذا أننا نجد فيه الرد الكافي على أقوال المبتدعين بأن المسيح أقل من الله وأنه مجرد مخلوق قد خلقه الله ليكون وكيل عنه فى عمل الخلق – وها قد اثبتنا من هذه الآيات المباركة كيف أنه الخالق ، فهو يستحق أن يكون له وحده المقام الأول وذلك فى كل شيء على الإطلاق ، إذ أن مقامه فريد بين خليقته كلها . . .

وإذا لا يوجد مكان للزعم الباطل بوجود خلائق عظام يكونون غير مخلوقين فيه فلا يخضعون لسلطانه – **ألا يؤكد هذا كله لماذا يسوع المسيح يستحق أن يكون الاعظم ذلك لأنه خالق الكل!! إذ كيف يتفق الادعاء بأن الله يخلق المسيح إلهاً ثانويا ويجعله ملكاً على العالم، وشواهد الكتاب تؤكد بأنه هو الرب وأنه هو لذلك الله – متجليا – ليكون وحده ملك على كل الارض!!**

* * * *

الفصل السادس

هو الأعظم لأنه كلمة الله الذاتية

« قد عظمت كلمتك على كل اسمك » (مز ١٣٨ :٢)

« فى البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله »
(يو ١ :١)

« ويدعى اسمه كلمة الله » (رؤ ١٩ :١٣)

* * * *

* **كلمة الله » اسم علم ليسوع المسيح :**

يؤمن علماء الشريعة المسيحية ويعتقدون مع سائر أبنائها بأن « يسوع المسيح » هو « كلمة الله الأزلى » الذى كان فى البدء عند الله معادلاً لله بوحدانية الجوهر الإلهى!!

وقد بدأ هذا الإيمان عند ظهور المسيحية على يد الرسل وآباء الكنيسة الأوائل ، وهو هكذا لدى المسيحيين إلى اليوم ، فهو ليس من ابتداع المحدثين منهم خالفوا به الأقدمين ، وإنما هو حقيقة ثابته لديهم- على مدى الزمن - وباختلاف طوائفهم ومذاهبهم . . .

أما سبب إجماع المسيحيين فى الاعتقاد بالمسيح « كالكلمة » فمرجعه ما ورد عنه بالحصر والتحديد فى انجيل يوحنا ورؤياه ، فقد اختص هذا البشير بتقديم أسماء المسيح الجوهرية - لا ألقابه النسبية - وعلى رأسها وصفه « بالكلمة » ، وتدل الآيات الإفتتاحية فى انجيله على جلال موضوعه هذا ، فلا أنساب هنا ولا اقتباسات من العهد القديم لأنه يتجه فيما يكتبه عن « الكلمة » إلى ما هو أبعد من دائرة الزمان أى إلى الأزل السحيق الذى يستحيل ادراكه!!

* * * *

ورغم أن هذه الناحية من أبرز نواحى عظمة المسيح . وهناك كثير غيرها مما يستحق التأمل فيه ، إلا أن المسيحيين عموما يجدون صعوبة فى التحدث عن هذه الأمور العميقة لعدم رغبتهم فى بذل الجهد المطلوب لتفهمها وبلغ الحال لدى كثيرين منهم فى عدم التمييز والالتزام

بالنص الكتابى ولا حتى قواعد اللغة إنهم يقولون : « فى البدء كانت الكلمة » وهكذا نجدهم يؤنثون الكلمة مع إنها تتجه إلى المسيح – وهو ليس مؤنثا، وسنرى فيما بعد أن الفرق شاسع بين « الكلمة » كمذكر ، و« الكلمة » كمؤنث ، ولكن خلطهم هنا واضح ولا مبرر له – لأن « كلمة الله» هنا إنما هو تعريف بشخص معين له وجود حقيقى ظهر به على مسرح التاريخ وبسببه يطلق على يوحنا فى انجيله « بالنسر الطائر » **لانه استطاع ان يخترق الزمان والحجب والشكل المنظور ليسوع المسيح الذى امامه وتجاوز أسمائه الأخرى محدقا فى الأزل البعيد المطلق ، ومقدماً للكنيسة منذ أواخر القرن الأول حقيقة «كلمة الله» فى أزليته واقنوميته ومقامه!!**

* * * *

وهو يفاجئنا فى رؤياه ١٩ :١٣ بالقول : «ويدعى اسمه كلمة الله »– مع أن الاسم المتعارف عليه لدينا هو يسوع المسيح ، فمن أين أتى له هذا الاسم الآخر :**هذا هو اسمه فى الأزل المطلق قبل ظهوره. على مسرح التاريخ – فى عرض الزمان – أما ما هو القصد من اطلاق هذا الاسم عليه!؟** لقد ورد إسمه فى الكتاب المقدس بعهديه كما تكلمت عنه « الفلسفة » أيضاً وفى كليهما تم استخدام لفظة LOGOSعنه – وهى يونانية ترجمتها « الكلمة » واعتبرته « العقل الإلهى » – على أن الكتاب المقدس وخاصة العهد الجديد هو الذى حقق لنا أن هذه اللفظة هى وصف لموجود حقيقى أكثر من كل الكائنات الأخرى وإنه فى زمن معين ظهر فى التاريخ ليكون حلقة الإتصال المنظورة بين الله وهذه الكائنات بأسرها فهو همزة الوصل بين الله والخليقة كلها إذ أن به تم اختزال المسافة اللانهائية بينهما وتم بذلك الاتصال!! وقد سبق أن رأينا قبلاً بطلان اعتقاد الغنوسية فى ملء هذه الثغرة بوسطاء من الملائكة ، ومثل ذلك ما حدث من بعد من اختراع شفعاء يملأون نفس الثغرة وإنما فقط بيننا وبين المسيح الآن ، وهم يناقضون بذلك كلمات الوحى فى يوحنا ١ :١٤ التى تقول : « والكلمة حل بيننا » وأيضاً « رأينا مجد الله فيه»!!

وهكذا دعى إسمه « كلمة الله» وقد جاء عن ذلك فى كتاب : « ميزان الحق » : إن الاسم «كلمة الله» يدل على اسم علم لأقنوم إلهى ، كان من الأزل المطلق عند الله ، ومن المعلوم إنه كائن حقيقى له وجود ثابت بشهادة الوحى

والتاريخ ، وليس وجوده مستنبطاً من عالم الخيال بحسب ما افترضته أقوال الفلاسفة بحكم ضرورة التوسط بين الله والعالم – فمن ثم فإنك إذا قارنت آرائهم وآراء العقيدة المسيحية ظهر لك الحق من الباطل . . . »

* * * *

*** الإعلان الفريد عن « الكلمة » ومكانته :**

لقد اتفقت الأديان جميعاً على أن هناك إلها واحداً خالقاً للكون ولكن واجهتها هذه المشكلة وهى : كيفية إتصال هذا الإله بالعالم « وذلك بسبب التنزيه البالغ الذى تمسكت به عنه تعالى . . . ومن ثم كان لابد من ظهور المسيحية لإيجاد هذه الوساطة المطلوبة بين الله والعالم عن طريق « الكلمة » **لأن الكلمة « الذى هو » العقل « يصدر عن الله ، والمادة تنقاد إلى هذا العقل!!**

وهكذا ربطت المسيحية هنا بين « التنزيه » الذى يقول بأن الله منفصل تماماً عن كل شىء ، والتشبيه الذى يعلن وجود الله فى كل شىء ، وذلك عن طريق الوسيط الوحيد « الكلمة الأزلى » **مما زاد معه التعجب كلما تأمل الناس فى جلال « الكلمة الإلهى » الذى صار جسداً . . وبذلك تم التوازن بين « التنزيه » و « التشبيه » ومع أن هذا جمع بين أمرين متناقضين ، إلا أنهما فى الحقيقة ليسا بمتعارضين ، بل هما يمثلان جانبين لابد منهما عند الحديث عن الله وهما «البعد والقرب» ، فمع أن التنزيه يمنعنا منعاً باتاً من الإقرار بأى صلة بالله ، إلا أن التشبيه يعلن بأنه ليس بعيداً عن أحد ، إذ بواسطة « الكلمة » تم الجمع بين التنزيه والتشبيه!! وقد وجدنا أن فكرة الوساطة عن طريق « الكلمة » هى الحل الوحيد لإيجاد العلاقة بين الله والعالم ،** ولاشك أن الضرورة أمام العقل المخلوق تحتم وجود هذا الوسيط بإعتباره الواسطة التى يُظهر الله عن طريقها ذاته – وهذا هو الحق الهام الخطير الذى تميزت به المسيحية عن غيرها – وهى تثبت بذلك عدم كفاية الوحى وحده ليكون حلقة الاتصال بين الله والناس ، ومن ثم جاء الابن « الكلمة الأزلى » ليخبرنا عن الله ويربطنا به . . و« الكلمة » هنا بحسب ما جاء عنه فى الكتاب المقدس من أوله إلى آخره انما تدل على شخص عجيب ، هو الذى يُدعى وحده بذلك ، وهى فى معناها الأسمى « المسيح »!!

* * * *

ولذلك ورد عنه فى مزمور ١٣٨ :٢ القول : «قد عظمت كلمتك على كل اسمك» – وهذا إعلان بالوحى بأن الله قد عظم كلمته على كل إسمه :

من المعلوم أن الله كان قد عظم إسمه فى الزمن القديم فظهر لابراهيم كالشداى (القدير) ولموسى كاهيه (الموجود) ولنبوخذ نصر (كالاله العلى) – فهذه الاسماء كلها مجيدة غير أن الله قد عظم الكلمة عليها كلها . . .

والتركيز هنا على إسم الله الخاص « يهوه » المشتق من « إهيه » وهو إسم الكينونه أو الوجود وقد أعلنه الله لموسى رداً على سؤاله بماذا يجيب الشعب إذا سألوه عن إسمه . . . وكان هذا الإسم هو « الأشهر » فى العهد القديم ، ولكن ها هو الله نفسه يعلن تعظيم الكلمة فوق إسمه هذا **لأن هذا الإسم لم يكن ليعرف إلا عن طريق الكلمة لأنها واسطة اظهار ذاته وإعلان صفاته وشرح سيادته بل هى التى كشفت عن أفكاره تعالى ومقاصده . . . وهكذا عظم الله كلمته هذا « المسيح » لأن التجلى الالهى قد تم فيه ليفصح لنا غير المدرك ، فينقله من المعنى المطلق إلى الفعل الاختيارى** – وهذا ما حدث فعلا بظهور « الكلمة » بيننا الذى فيه تجلت صفات **الله وتحققت بوضوح ولولا ذلك لما كان بالامكان استيعاب معانى صفات الله وإتمام ادراكها اختباريا . . . وبذلك تم اختزال المسافة الحتمية الشاسعة جداً التى بين الانسان المخلوق المحدود وخالقه المتعالى غير المحدود!!**

****

فصار الكلمة – بهذا الإعلان عن تعظيمه – موضوع حمد وتسبيح أمام كل ما يمكن ظنه آلهة أو معبودات سواء ملائكة أو أوثان أو رؤساء ، وواضح أن أحداً غير المسيح لم يلقب بانه كلمة الله . . .

ومدحه وتعظيمه هكذا إنما يعنى أن الله قد تلألأ فى الإعلان عن ذلك هنا ، إذ أنه هو الذى كلمنا الله فيه أخيراً – وبذلك كشف لنا « الكلمة » الوجود الإلهى بصورة جديدة واقعية . . .

ومن ثم لم يكن بغريب انتسابنا نحن المسيحيين لاسم « المسيح » الذى دعينا به « مسيحيين » الأمر الذى يتنصل منه « شهود يهوه » بتنكرهم لهذه التسمية وابدالها بتسميتهم هذه ، وذلك امعاناً منهم فى التنكر ليسوع وايجاد التفرقة بينه وبين يهوه، وقد تم فيهم قوله لمعاصريه : « لكنى أكرم أبى ، وأنتم تهينوننى » (يوحنا

٨ :٤٩) ، فى حين يقول محيى الدين العربى أن : « الكلمة » هى اللاهوت وأيضاً :« الكلمة هى الله متجليا » وقد وردت شهادته هذه فى كتاب (فصوص الحكم جزء ٢ ص ١٣)

* * * *

* **المسيح كلمة الله الذاتية :**

عرفنا مما سبق بيانه أن « الكلمة » هى إسم للمسيح ينسب إلى «الله» بالاطلاق فيقال لهذا السبب : « كلمته » و «كلمة الله» وذلك بمثابة تحديد معين لايمكن تجاوزه إذ هو يؤدى إلى معنى أن : « **المسيح وحده » هو « كلمة الله » دون أن يشاركه فى ذلك سواه ، الأمر الذى عرفنا منه بالضرورة ان هذا الإسم « الكلمة » هو من صفات الله الذاتية المستقرة فى نفسه!! مما يستوجب التأكيد هنا على ضرورة التميز بين المسيح باعتباره « كلمة الله الذاتية » وبين الكتاب المقدس الذى هو « كلمة الله الوصفية » ، وكذلك الأمر الايجادى بلفظ « كن » والذى يطلق عليه «كلمة الله الأمرية»** إذ أن الخلط هنا فى هذا المجال باطل ويؤدى إلى ضلالات ليست فى الحسبان . . .

وذلك لأن المسيح هنا ليس مجرد كلمة من كلمات الله بل هو «كلمة الله» الأزلى غير المحدث ، **ولذلك فقد استطاع أن يقدم لنا صورة صادقة للذات الالهية استحق بها أن ندعوه كلمة الله الذاتية »!! فهو ليس شبيه بكلام الوحى ولا بكلمة التكوين ، بل هو ذات أى شخصية متميزة لها وجودها الخاص . . . وإذاً فالكلمة فى الله لا يمكن إلا أن يكون أقنوما له ذات الله ، وقد تجلى فيه مجد الله الذاتى تجليا مطلقا ونهائياً . . .**

وقد لاحظ علماء اللغة العربية بأنه بينما عبارة كلمة من كلمات الله ، تعنى كلمة من الله معناها «تعبير أو حديث» إلا أن عبارة «كلمة الله» تقدم مفهوما آخر وهو الإعلان الإلهى لما فى ذات الله . . . وهذا يستوجب التسليم بأن « الكلمة » فى المعنى المتقدم هى من استلزامات الوجود الإلهى حتى لا يكون الله صامتا أو عاطلا فى الأزل بل كان له نشاط فكرى ذاتى قبل ظهور الكائنات ، ولولا وجود أقنوم الكلمة فى اللاهوت لما كان هناك مجال لهذا النشاط أزلاً ، ولا لإظهاره عند الخلق إذ أنه هو العقل الحاوى للفكر الالهى تصويرا وتعبيراً . . .

* * * *

ومن ثم فقط سقط ادعاء « شهود يهوه » بان المسيح دعى « بالكلمة » باعتباره كمتكلم عن الله ، إذ هو بالأحرى

الأقنوم الناطق فى اللاهوت (أى اللاهوت متكلماً)- فهذا الذى هو« الكلمة » هو الذى به الله « أمر فكان ، وقال فصار » ، فيه قد عمل العالمين لأنه هو الذى دعى الكائنات إلى الوجود ونظم الكون باعتباره أقنوما إلهيا اجتمعت فيه حكمة الله التى رأت الكائنات مسبقا وقامت بتصويرها فى العلم الالهى ، كما أنه قوة الله أى القوة الناطقة فى اللاهوت لتنفيذ عملية خلقها ، وهو لذلك كمال محض لا يقبل التعريف أو التحديد ، وتعزى إليه قوة الخلق والتدبير!!

****

ومن الأسف أنه قد حذا حذو تلك الفرقة الضالة المنسوبة للمسيحيين زورا وبهتانا من قد ارتدوا عن المسيحية لرفض عقولهم التسليم باعلانات الوحى عن « المسيح » والعمل على تفهمها على الوجه الصحيح ، مجهدين أنفسهم فى ابتداع تخريجات باطلة عنه ، من بينها أنه دعى « بالكلمة » لأنه كلمة من كلمات الله المتداولة والمتتابعة مع الزمن ، وكذلك قولهم أنه إنما دعى بالكلمة ، لأنه كرسول قام بابلاغ الناس كلام الله أو لأنه تكلم بكلمة الله للآخرين . . .

مع أنه مما لا يقبل الشك أن ما قيل عنه بالوحى إنما هو السر الكاشف عن حقيقته ككلمة الله الذاتية فضلا عما ورد عنه بكونه : « كلمته (اى كلمة الله) التى ألقاها إلى مريم » ، وهذا يؤكد أن « الكلمة » هذا كان موجوداً بالطبع قبل نزوله وحلوله فى مريم - أى أنه الوحيد الكائن قبل القائه إلى مريم وخروجه إلى الدنيا ... أنه « كلمته » أى « كلمة الله الذاتية » الصادرة من ذاته لكونها من جوهره - وهذا مما لا ينطبق على شخص آخر غير المسيح!! ولا شك أن فى ما ذكر نجد السبب فى ولادة المسيح بدون أب!! وأما القول إسمه « المسيح » فإنه يشير إلى شخص معلوم بالذات ، ولذلك جاء وصفه معرفا « بأل » أى « الكلمة » ولم يأت نكرة أى « كلمة » - والضمير هنا عائد على مذكر فى إسمه «المسيح» وليس على مؤنث ، ولذلك وجب أن يعود الضمير إلى المتكلم نفسه أى إلى الله ، وهذا ينفى حصر المعنى فى نطاق أنه جاء بكلمة الله وأمره بدون سبب متوسط- أى أصل بشرى - إذ من الواضح أن هذا القول نوع من التهرب!! وهذا سر عصمته مما ينفى الإدعاء أن المسيح كان انسانا كاملاً فى صفاته فحسب ، لأننا لا ندرى كيف يوصف بالكمال من يوضع فى نفس الوقت فى مستوى البشر وجميعهم ناقصون غير كاملين!!

****

* **الكلمة الذاتية ليست هى الوصفية :**

« كلمة الله الذاتية يعنى كلمته الخاصة بذاته وبوجوده تعالى ، التى هى منه وفيه، والتى هى عقله وعلمه وتعبيره وهذه أمور مميزة فى ذات الله ، كما أنه مصدر الكلمة الوصفية التى هى « الكتاب المقدس » وكذلك الكلمة الأمرية التى هى كلمة « كن » التى تم خلق الكائنات بها ولكنه ليس أيهما لأنه هو « الكلمة الذاتية ».

وأما من جهة المقابلة الأولى المعروضة هنا والتى فيها نميز بين « كلمة الله الذاتية » والكلمة المكتوبة باعتبارها « كلمة الله الوصفية» – إذ أن التطابق بينهما فى عرف الكثيرين ليس فى محله ، ولكنه بلغ عند بعضهم إلى حد القول : **«بأن الكتب المقدسة هى ذات المسيح ، وانها لذلك تحتوى على عقل الله»** وهذا الذى جاهروا به قد تجاوزوا فيه حدود الصواب ، لأن عقل الله تعالى لا يُحد ولا يُحاط به ولا يُشتمل عليه ، كما أن كلمات الوحى محدثه أى قد وجدت عند الالقاء بها إلى من أُتمنهم الله على ذلك وأمّنهم على توصيلها للناس ، **ولذلك فهى لا تعدو أن تكون بلاغاً للناس يصف لهم جوانب من عظمة الله وصفاته دون الإظهار الكامل لها الذى تم فى يسوع المسيح كلمته الذاتيه** . . .ولذلك لا يجوز أن يقال عن الكتاب المقدس بأنه نهاية مجد الله ، لأن هذا المجد فائق غير محدود ولامتناهى!! ومن هنا وجب التميز وعدم الخلط ما بين الكلمتين : « الكلمة الأقنوم » و « كلمة الوحى » مع انها صادرة من ذلك الأقنوم نفسه – وفى هذا الصدد قال فم الذهب :–

« ولا تتوهم اذا سمعت «كلمة الله «انها كلمة على بسيط ذاتها ، لأن الكلام الذى نطق به الأنبياء والملائكة هو من كلام الله ، لكن لا كلمة واحدة من تلك الكلمات إله – أما كلمة الله الحقيقى فانه جوهر إلهى حاصل فى أقنوم بارز من أبيه خلواً من أى انقسام عارض »!!

ولذلك فإن « كلمة الله الذاتية » هنا ليست هى مجرد النطق أو الوحى الذى تكلم به موسى الكليم وسائر الانبياء والذى نستعمل له « كلام الله». . . ولذلك فإننا مع إيماننا بأن الكتاب المقدس هو كلمة الله المكتوبة – أى كلامه الصادر بالوحى – إلا أنه يحوى إعلانا وصفياً عن طبيعة الله ومجده دون احتواء أو حصر ، مما يتضح فيه بكل جلاء عدم كفاية أسفار – الكتاب المقدس – لتكون حلقة اتصال يستطيع البشر بواسطتها

أن يعرفوا الله إذ أنه ليس بمقدورهم أن يقدموا عنه سبحانه إعلاناً تاماً كاملاً . . . فان كتب الوحى هذه قد تعلمنا أموراً كثيرة عن الله فتعلق لنا أوامره ومشيئته وصفاته ، ولكنها لا تستطيع أن توصلنا إلى معرفة الله معرفة ذاتية – ومن ثم فان المرسلين منه تعالى لا يستطيعون أن يعلنوه للبشر وذلك للجهل بمعرفته الذاتية ، فهو الكائن غير المنظور . . . ومن ثم **فقد ظهرت الحاجة إلى مظهر الهى منظور يسمو على تعاليم الانبياء – وهذا ماتم فى يسوع المسيح باعتباره « كلمة الله الذاتية »!!**

****

ولذلك فقد أجاد بعض البارزين من أئمة التوحيد فى ادراك التفرقة هنا بين « الكلام النفسى » و « الكلام اللفظى » فيما يختص بالله – وجعلوا الأول منه بالضرورة منزه عن كلام الناس ، وهو صورة لعلم الله الذاتى كما أنه صورة للمعلوم فيه أيضاً ، واعتبروا ذلك كمال وجودى محض لو لم يكن الخالق متصفاً به لكان ناقصاً سبحانه ، ولكان غيره من الموجودات أكمل منه – تعالى الله عن ذلك!! وهكذا لم يكن هناك انكار للكلام النفسى عن الله رغم أنه يحمل معنى تعدد القدماء ، أما الكلام اللفظى فهو مصدر الوحى!!

****

* **التميز بين الكلمة الذاتية والأمرية :**

كما أن الكلمة هنا – ليس معناها الأمر الايجادى بلفظ « كن » ، لأن هذا مهرب لمحاولة التخلص من معناها الذاتى ، والرد عليه هو أن كل الكائنات قد خلقت بأمر هذه الكلمة، ومع ذلك فلا نجد أحداً منها يُدعى مطلقا « كلمة الله». . . وفضلا عن ذلك نجد انه لو كان المقصود بالكلمة اللفظ المشار اليه أى « كن » لعاد الضمير عليه مؤنثا ، فكان يقال :« فى البدء كانت الكلمة » أو أن اسمها « كن » لأن لفظة « الكلمة » مؤنث أما وقد عاد عليه الضمير مذكر هنا ، فهى تعنى إذاً ذات لا أمر . . . **وهو لذلك ليس كلمة من كلمات التكوين والخلق التى يزعمون صدورها من الله مما يجعل ذات الله تتعلق بها المحدثات – لأن نسبة كلمات التكوين والخلق لله – وهى محدثة – تجعل ذات الله محلا للأوامر والاستحيازات وهذه كلها ليست قديمة بل محدثة . . . ولذلك قالت المعتزلة أن كلمة الله التى أوجدت الخلق ليست**

أزلية . . . ونفت الأزلية عما يقال له كلام الله أيضاً حتى لا تسلم بأزلية يسوع المسيح كلمة الله الذاتية . . . ولكنه لأيسر من ذلك بكثير اعتبار صدور كلمات الخلق نفسها من كلمة الله الذاتية الأزلية – كلمته الوحيدة غير المخلوقة – وهى كلمة تامة غير منفصلة أو خارجة لكنها لم تزل دائمة الوجود فى ذات الله . . .!!

* * * *

ومن ثم فإن كلمة التكوين وهى التى دونها الوحى فى فاتحة سفر التكوين ونصها : « قال الله ليكن . . . » إنما يقال عنها مجازاً كلمة – ولكن هذه كلها داخله فى الزمان وفى بدئه– **أما كلمة الله الذاتية الذى هو إبنه الجوهرى الوحيد فهو واحد وفوق كل الأزمان ومساو للآب فى عدم الابتداء!!**

صحيح أن كلمة الله الأمرية « كن » ليست ككلمة الناس لأن مجرد نطقها يجعلها ذات مفعول ويأخذ كيانها فى الوجود بما تصنعه من المخلوقات ، **ولكنها منسوبة للمسيح كلمة الله الذاتية ، فهى صادره عنه إذ هو مبدىء الكائنات ومنهيها أى الذى منه ابتدأت وإليه تنتهى – وهذا هو المعنى المتضمن فى قوله : « أنا هو الالف والياء . البداية والنهاية ، الأول والآخر »** (رؤ ١:١٧،١٨) **وهذه الصفات يتحاشى المضلون ذكرها فى كتاباتهم لأنها تكشف بدعتهم وتهدمها من أساسها . . .**

وقد جاء هدا التمييز واضحاً فى اللغة العبرية إذ أنها قد استعملت للكلمة لفظين :«دابار» وهى مذكر وتعنى «تدبير» للإشارة إلى أقنوم الكلمة و « إمراً » وهى اللفظ الثانى وهو مؤنث ومعناه « أمر » – وكذلك قد أوردت اللغة اليونانية لفظين مختلفين للتمييز بين الكلمة الذاتية وتلك الامرية الأولى « لوغوس » وقد ورد فى صيغة المذكر ، بينما الكلمة التى تعنى مجرد التلفظ أو النطق فهو «الكسيز» وقد وردت مؤنثة . .!! وقد جهل هذه الحقيقة « شهود يهوه » فزعموا بأن الله فى البدء خلق « لوغوس » ولا ندرى أى سند كتابى أو مرجع من الوحى به يثبتون هذا الزعم الفاسد سوى تلاعبهم بالنصوص واستحداث اقتباسات مبتورة وفساد تفسيرها لأجل دعم باطلهم وهيهات!! لأن كل الكائنات وجدت بكلمة « كن » الأمرية ، فإن كان المسيح يماثلها فى ذلك – فلماذا دُعى وحده دونها جميعاً «بكلمة الله»!؟ **أما الصواب فى ضوء ما سردناه فهو ان الذى أوجد الكائنات بكلمة « كن » الأمرية هو يسوع المسيح نفسه**

كلمة الله الذاتية فهو الذى نطق بكلمة التكوين فى فجر الخليقة ، إذ هو المختص بالنطق فى اللاهوت ومن ثم فإنه هو الذى أوجد الأكوان بهذه الكلمة الأمرية! ! فهذه – أى الأمرية – صادرة عن تلك – الذاتية – وليست بديلاً عنها بأى حال من الأحوال!!

وفى القول :« به كان كل شىء » دليل قاطع على أنه هو صاحب الامر الايجادى للخليقة والمفوض فى خلقها والأمر بوجودها إنما صدر عنه – يؤكد ذلك أنه كان يتكلم بسلطان فى أيام تجسده ، وليس معنى ذلك أن كلامه مؤثر أو بليغ بل أنه صاحب سلطة ذاتية ، ففى مقابلة الوصايا كان يقول لهم : « أما أنا فأقول لكم . . . » ومعنى ذلك أن كلامه نهائى وبسلطان ، ولذلك هربت الشياطين من أمامه وكذلك الأمراض بانواعها إذ كان يأمر جميعها بكلمة فتخرج جميعها فوراً – أنه بسلطانه هذا مشى على أعالى البحر ، واسكت الامواج والرياح حتى يمنع السفينة من الغرق ، وبالنسبة للموت نفسه هرب من أمامه فى ثلاث حالات : عند ابتدائه ، وقبيل الدفن ، وبعد أن مكث الميت أربعة أيام فى القبر وأخيراً دخل فى مواجهة مريرة فى معركة مع الموت ، ولكنه انتصر عليه لأنه رب الحياة ورئيسها!!

ومن ثم هل يكون مجرد مخلوق من هو رب الوجود ، صاحب الأمر المطلق فى إيجاد الكائنات والذى وجدت فيها صدورها أزلاً – العقل الإلهى الفريد الجامع لكل المعلومات الخاصة بالوجود الإلهى المتميز وبوجود الكائنات كلها لكونه كلمة الله الذاتية – فهل يكون هناك من يستحق أن يكون أعظم منه على الإطلاق!؟

* * * *

*** فاتحة إنجيل يوحنا تتصدى لمفتريات المبتدعين :**

كتب يوحنا انجيله فى أواخر القرن الأول الميلادى ونرى من فاتحته إعلان يتفجر من أعماق الأزل قائلاً :« فى البدء كان الكلمة » معلنا بذلك أن « الكلمة ليس مجرد صفة معنوية بل هو أقنوم أزلى موجود فعلاً عند الله ، وهو الله نفسه بحكم وحدانية الجوهر!!

ولقد استخدم الوحى فى يوحنا ١ :١,٣ لفظتان يونانيتان مختلفتان فى الصفة والمعنى :

ففى الفقرتين الأوليتين – فى البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله . . .إلخ

نجده يستخدم لفظة « آين » وهى المترجمة فى العربية « كان » وهى فى الانجليزية (WAS) ويراد بها حالة الاستمرار التى تدل على الكينونة الدائمة أى أنه كان ولا يزال موجوداً إلى الآن كما سيكون موجوداً إلى الأبد – وهنا قام شهود يهوه بمسخ العبارة فوضعوا بدل « كان » الذى صار ليخرجوا للعالم تعليماً كفرياً لكن النص لا يزال يتحداهم . . . إذ الصيرورة هى للتجسد وهى بالضرورة تاريخية فى الزمان وهى المعنية بالقول : « والكلمة صار جسداً » (يو ١ :١٤) **وأما فعل الكينونة الأصلى فيرينا أن هذا الأقنوم المبارك مساوٍ للآب فى الجوهر بدليل قوله أيضاً « وكان الكلمة الله وهنا تقرير لاهوته مع الذى هو عنده . . وحرف الجر « عند » فى الاصل اليونانى لا يعنى مجرد الرفقة أو الاشتراك فى مصلحة ما بل هى (PROS) التى تعنى التعبير عن وضع شخص نحو الموجود معه . . . وهذه الثلاثة حقائق الواردة هنا تؤكد أزلية الكلمة وأقنوميته ولاهوته** . . وهى لا تعنى وجود إلهان لأن هذا الإنجيل نفسه ينفى ذلك بتصريحه أن الآب والإبن هما واحد!!

* * * *

وهذا النص لا يقول أنه كان عند الآب لكى يعلن أن الآب هو الله ، لأن ذلك لا يحتاج إلى بيان – وإنما قصد أن يقول أن الإبن أيضاً هو الله بقوله : «وكان الكلمة الله» أى أنه هو الله كالآب تماما ، وهنا نجد تمييزه عن الآب فقط من جهة الأقنومية : **وذلك لأن لفظة« عند » تعنى التوافق والارتباط والمساواة ، ومن ثم فقد تلقب بذات لقب الجلالة « الله – وليس** كما زعم شهود يهوه « إلها » بل « إلها مخلوقا » كما يحاول الشيطان أن يضلل الناس عن معرفة خالقهم وفاديهم محولا إياهم إلى إله آخر وهمى لاصلة لهم به ولا رابطة تربطه بهم!! أما زعمهم بأن كلمة « الله لم ترد معرّفة فى هذا النص لكى تصبح إلها ، فانها وردت هكذا فيما بعد فى القول : «الله» لم يره أحد قط» ومن ثم فإن ورودها معّرفة أو بغير «أل» التعريف لا يؤثر على المعنى المقصود وهو نسبة الالوهية للكلمة!!

وأما اللفظة الأخرى فهى « اجنتو » ويراد بها الكينونة التى تمت فى الزمان وقد وردت فى القول : « كل شىء به كان » وترجمت فى الانجليزية (WERE MADE) مما يفيد الكينونة المصنوعة ويصح أن تكون ترجمتها فى العربية :« به تكون

كل شيء » ، مما نتبين منه أن كينونته هو أزلية أصلية ، أما كينونة من سواه فهى زمنية بالتكوين!!

* * * *

وأما تلاعبهم الآخر فهو فى لفظة « فى البدء » بجعلهم لها « فى بدء صار الكلمة » ، فان هذا الابدال الثانى أيّاً كان الرأى فى ترجمتهم هذه – لا ينفى أزليته كما يحاولون ويتوهمون لأن النص لم يقل : « فى بدء – وُجد الكلمة أو خُلق – بل « كان » ، وهذا يعنى أنه لما جاء هذا البدء – وهو غير معروف بزمن أو محدد بوقت – لأنه لا يقول من البدء أو منذ البدء بل «فى البدء» وهذا معناه أنه ليس له بدء ابتدأ فيه ، ولا عجب إذاً من قولة عن نفسه « أنا هو البداية »!!

وبذلك يتأكد لنا أن معنى كلمة « فى البدء » الخاصة بوجود الكلمة ترجع إلى الأزل المطلق السابق لكل بدء الخليقة – وأما القول التالى وهو : « هذا كان فى البدء عند الله فان كلمة « البدء » هنا بعد ذكرها الأول ليست لمجرد التكرار لما سبق ذكره وكأنه للتثبيت ، بل هو كشف عن إعلان تقدمى يقصد به وجوده فى بدء الخليقة :

ففى « البدء » الأول نرى وجوده السابق للخليقة ، أما فى البدء الثانية فنرى وجوده عند خلق الخليقة أى أنه أينما كان بدء الخليقة كان هو هناك بدون أن يكون لوجوده بداية . . ولذلك فاننا نجد فى « البدء الثانية » إدخال مباشر لخلق الله منسوب إليه فى العبارة : « به كان كل شيء وبغيره لم يكن شيء مما كان »!! أى ان هذا الذى كان فى البدء المطلق كان أيضاً موجوداً عند بدء الخليقة ، لان هذا القول الأخير مرتبط بالخلق – أى أن هذا المسمى «كلمة الله» هذا بعينه كان فى البدء وقت الخلق عند الله – مما ينفى عنه الزعم بأنه خلق فى البدء . . . ومما لا شك فيه فى هذا الضوء الشامل أنه هو المعنى بالقول : «وقال الله» الوارد فى فاتحة سفر التكوين – لأن المقصود هنا هو أقنوم الكلمة – إذ هو الأقنوم الناطق فى اللاهوت – فهو الذى قام بالخلق المباشر فدعا الخليقة إلى الوجود وأبرزها من العدم ، وبدون ذلك ينتفى كل ما جاء فى الكتاب المقدس عن نسبة الخلق المباشر « للوغس » أى « الكلمة » . . . وهذا بالتالى ينفى أن يكون الله قد خلقه أولاً ثم أمره أن يخلق هذه الخليقة وان يتولى أمر حفظها ودوام وجودها كموظف يقوم بوظيفته . . . .

وأما النصوص الواردة والتى تكرر فيها حرف الجر « به » وهى : « به كان كل

شيء » و « الكل قد خلق به » و«به قد عمل الله العالمين » فلا تعنى أنه مجرد آلة أو علة متوسطة فى الخلق ولكنها تعنى أنه هو الذى صنعها بابداع واتقان فهو المقصود بالقول : « أن العالمين اتقنت بكلمة الله» ، **فهو القائم الفعلى بعملية الخلق باعتبار كونه الكلمة الأزلى، وبموجب ذلك فهو الخالق الذى يتميز عن جميع الخلائق ، مما ينفى عنه الزعم بأنه « مخلوق » ولذلك فقد ارتبط إسم « الكلمة »** باسم «الله» بصفة دائمة لكونه موجد جميع الكائنات ، وحافظها وحاملها الأمر الذى يستحيل انكاره فى ضوء الآيات الكتابية المتضمنة لما ذكرناه!!

****

فكيف يكون مخلوقا من هو قبل المخلوقات!؟ وكيف ينزل منزله المخلوقين من كان حاضراً مع الخالق الأزلى كالوسيط الأعظم لكل ما حدث من بدء الخليقة وما يحدث إلى المنتهى بواسطته!؟

وهنا يأخذنا العجب فى هذا المجال – بالنسبة لشهود يهوه – فانهم مع تسليمهم الضمنى بأن المسيح « الكلمة » خالق الكل » ، يعتبرونه مخلوقاً وخالقاً فى نفس الوقت :

فانه بمقتضى نظريتهم هذه يكون هناك خالقان – فايهما الإله الذى نعبده ، ام نتخذ منهما كليهما إلهين لنا نعبدهما وهذا هو الشرك بعينه!؟ فضلاً عن أن الخالق يستحيل أن يكون مخلوقاً ، لأن المخلوق محدود ، والخليقة فيما يُرى وما لا يُرى تتطلب فى خالقها أن يكون غير محدود فى عمله وحكمته وقدرته – والكتاب يطالبنا كبشر أن نتوصل ببرهان الخليقة إلى معرفة وجود الله (رو ١ : ١٩،٢٠) **فهلا يقودنا ذلك إلى معرفة لاهوت وقدرة الله « الكلمة » – لوغس – خالق الخليقة وموجدها!؟**

ولنا الآن فى نهاية المطاف أن نقدم هذا السؤال وهو : اذا اعتبرنا الكلمة (لوغس) إلها مخلوقا ومنفصلا ومستقلا عن الله (يهوه) الذى خلقه – حسب زعمهم – وفوض اليه أن يخلق هذه الخليقة ، فهل تصميم هذه الخليقة كان وقت خلقها فى عقل يهوه أو فى عقل لوغس! ؟ فان قيل انه كان فى عقل لوغس ، فهذا يدل على أن للوغس حكمة غير محدودة وهو بها مساو ليهوه،وان قيل انه كان فى عقل يهوه وانتقل منه إلى عقل لوغس – نقول أنه ما كانت هناك ضرورة لوضعها على عاتق لوغس ، لأن إبرازها من العدم بواسطة يهوه بكلمة قدرته أيسر من ذلك ، إذ ما الداعى أن يقيم يهوه كائنا مخلوقاً ويؤهله ويكلفه بخلق العالمين وهو القائل : « انا

الرب إلهك . . لا يكن لك آلهة اخرى أمامى » – أليس الاقرب من هذا وذاك القول بأن « لوغس » الخالق هو نفسه « يهوه » لوحدانية الجوهر بين الله وكلمته! ؟ حيث أنه قد ثبت لنا من هذه المقابلات استحالة وجود كائن يقال له خالق ومخلوق فى آن واحد . . فكلمة الله (لوغس) إذا كان خالقاً فهو الله لا محالة وقد وجبت عبادته . . فان لم يكن هو الله فهو إذاً ليس بخالق ، كما أنه لا يمكن أن يكون هو خالقاً آخر مع الله لحتمية وجود خالق واحد للكون ، مما يؤكد بالضرورة أنه «الله»، فلم يكن هناك أدنى غرابة بأن نسبت إليه آيات عديدة إسم الجلالة « الله » والتى لا يمكن تكذيبها . .

* * * *

وهذا ما تقود اليه ضلالة شهود يهوه ، الذين يريدون منا أن نعتبر المسيح «كلمة الله» خالقا ومخلوقاً فى آن واحد – مما لا يقبله أى عقل فى الوجود ، كما أنه ليس هناك منطق يتبعه على الإطلاق . . لأن فى زعمهم هذا منتهى الغرابة إذ كيف يكون المخلوق خالقاً!؟ وكيف يخلق هذا المخلوق نفسه أيضاً!؟

فى حين أننا قد أثبتنا أن المسيح « الكلمة » هو شخصية إلهية قدمت لنا إظهاراً كاملاً عن الذات الإلهية وصفاتها ، وهى التى تمثلت فيها قدرة الله الآمرة والناهية فى الكون – ولذلك نجده يقوم بالخلق لا كمخلوق يساعد خالقه فى ذلك الأمر الذى فيه إهانة للخالق نفسه ، إذ أن عمل الخلق خاصية إلهية بحته ، فقيام المسيح به إنما لأنه كائن فى وحدة اللاهوت الجوهرية . . . وهذا كله مما يؤكد أن يسوع المسيح هو الأعظم لأنه كلمة الله الذاتية!!

* * * *

الفصل السابع

هو الأعظم لانه ابن الله الوحيد

« وانا قد رأيت وشهدت ان هذا هو ابن الله (يو ١ :٣٤)

« هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكى لا يهلك كل من يؤمن به . . والذى لا يؤمن قد دين لانه لم يؤمن باسم ابن الله الوحيد » (يو ٣ :١٨,١٦)

« ابن الآب بالحق والمحبة » (٢يو٣)

* * * *

* **الإعلان عن الإبن فى التوارة :**

لقد كان المسيح ولا يزال قلب كل عاصفة فى كل جدال دينى ، فالإيمان بالله يسلم به أهل الأديان الثلاثة على السواء بل ويقبله كثيرون من المفكرين الوثنيين – أما عقيدة الإيمان بيسوع المسيح كإبن الله ، مع حقيقة التثليث – فهما ما يميز المسيحية ويحير غيرها من الأديان . . .

ولذلك فليس هناك شك أن الإيمان بإبن الله هو الخط الفاصل بين الديانة المسيحية وغيرها ، بل هو أساسها ، وبدونه تضحى لا شىء على الاطلاق!!

وكلمة «إبن الله» ما تزال من أعظم الألفاظ وأحفلها بالأسرار ، وليس من سبيل إلى ادراك عمقها لأنها ليست مما يدرك بالعقل البشرى إذ أن الافهام لاتحدها وكذلك لا تظهر كنهها الالفاظ البشرية!!

ولقد صور العدو للكثيرين أن مجال هذه الابحاث هو ارض متاهات وأقنعهم بالابتعاد عنها مما أدى إلى فتح ثغرات وإحداث تناقضات فى العقيدة المسيحية وكان من وراء ذلك انهيار خطوط الدفاع وعدم وضوح الصورة فى أذهان الكثيرين مما يساعد بعضهم من حين لآخر إلى ترك المسيحية بل والتهجم عليها . . ومع أن الشيطان يعرف من هو يسوع المسيح من قبل وجود البشر منذ خلقه هو والملائكة إلا أنه بدافع الكراهية والنفور قد جعل من حقيقة المسيح هذه مجالاً للجدل العنيف الذى يبث به فى عقول البشر عدم استساغة

لفظة « إبن الله». وقد افتى فيها بشتى الأقاويل التى سنعرض لها . على إننا نبدأ الآن بإعلان الوحى عن « إبن الله».

****

وبدءاً بالاقتراب من هذا السر ، فاننا نجد أن كلمة « إبن الله » قد وردت فى الكتاب المقدس ٧٥ مرة ، ولم تكن المسيحية هى أول من أعلن عنها اذ بدأت الاشارة الاولى اليها بكل وضوح فى المزمور ٢ :٧ حيث نجد النص . « إنى اخبر من جهة قضاء الرب قال لى أنت ابنى » ويلى ذلك القول :« أنا اليوم ولدتك » ولا شك أن هذا الإعلان النبوى يكشف أن هذا الإبن وهو مولود من الآب قبل كل الدهور سيكون مولوداً بالجسد يوماً ما فلما اعترف بطرس له بذلك بإعلان سماوى مباشر طوبه المسيح على ذلك ، واتخذ من هذا الإعلان الذى أخذه بطرس من الله مباشرة الصخرة التى بنت عليها الكنيسة كيانها الشامخ فى انحاء السكونة حتى ان الحان الكنيسة القديمة بشتى اللغات دارت كلها حول الاقرار بلاهوت المسيح متمثلاً فى الاعتراف به « كابن الله الوحيد »!!

****

كما ورد هذا الاسم فى أمثال ٣٠ :٥ فى القول : « من صعد إلى السموات ونزل . . من جمع الريح فى خفتيه . من صرّ المياه فى ثوب . من ثبت جميع أطراف الأرض . ما إسمه وما إسم إبنه أن عرفت » – وكان الكاهن اليهودى عندما يصل إلى هذا السؤال يجيب عليه بالقول : « هذا سر أغلق علىّ معرفته »!!

لقد كان اسم «الله» معروفا فى ذلك الوقت الذى نطق فيه سليمان هذا السؤال ومع ذلك لم يجب عليه لا هو ولا غيره ، لأنه مشروط ان من يعرف الله ويعرف إبنه أن يكون قد صعد إلى السموات ونزل . . وسليمان نفسه مع فرط حكمته لم يصعد إلى السموات ولا نزل ، **ولكنه بالحكمة التى تميز بها لم ير غضاضة فى أن يكون لله إبن أزلى جوهرى الذى لما جاء قدم جوابه عن هذا السؤال لنيقديموس بأنه هو الذى صعد إلى السموات ونزل . . .!!**

ومع أن لله عدة أسماء منها « يهوه » و « الوهيم » و « ادوناى » ، إلا أن الإسم الذى لم يكن معروفا لديه وتساءل

عنه هو الإسم الذى ارتبط « بإبنه » الوارد فى النص بعد ذلك وهو إسم «الآب» – هذا هو الأساس الذى بنيت عليه الكنيسة « يسوع المسيح إبن الله الحى » ، لكن الشيطان أعمى عيون أذهان الكثيرين عن رؤية جمال هذا الإسم وعمق معناه!!

* * * *

*** إنجلاء الإعلان عن الإبن فى الإنجيل :**

يتبين لنا مما سلف ذكره أن الوصول إلى تسمية المسيح بإبن الله لم يكن من نتاج العقل البشرى،ولا هو وليد مقترحات الفلسفة التى لم تستطع أن تدرك المسيح كما هو مصوّر فى الإنجيل ولو أنها اقتربت من مشارفه ، ومن ثم فقد تفرد الإنجيل بإعلان صريح عن يسوع المسيح أنه «إبن الله» وهو ما أطلق عليه فى أغلب اسفار العهد الجديد ، ولذلك فقد فاز بالمكانة الأولى وذاع استعماله فى عالم الفكر المسيحى!!

وكان مرجع ذلك اعلان المسيح عن نفسه بأنه كائن قبل ولادته من مريم ومجيئه إلى هذا العالم – موجود فى الذات الإلهية منذ الأزل ، بل كان يعلن وحدانيته مع الآب فى الذات الواحد . . . وما كان ليفعل ذلك لو أنه كان مجرد إنسان ، كما أن اليهود فعلا اعتبروا ذلك تجديفا . . فاتهموه بذلك لأنه ساوى نفسه بالله وقال أن الله أبوه (يو ٥ :٣٨) وكان رده عليهم أنه إذا كان الوحى قد قال عن الانبياء– وهم أرضيون – ولكن لأنهم نطقوا بكلمة الله التى جاءتهم ، صاروا بذلك آلهة فماذا يقال عن هذا السماوى الذى لم يذكر عن غيره قط ما ذكر عنه هنا من : « أن الآب قدّسه وأرسله إلى العالم (أى عينه وخصصه لهذه المهمة الخطيرة وهى إعلان ذات الله للبشر) وهو لذلك يقول لمعاصريه تعقيبا على ما سلف ذكره : «افتقولون له انك تجدف لانى قلت انى إبن الله» (يو ١٠ :٣٦،٣٥) فتناول اليهود أيضاً حجارة ليرجموه . . وطلبوا أيضاً أن يمسكوه فخرج من أيديهم ، وهذا ما يفعله شهود يهوه وأمثالهم من المارقين بكتبهم الكفرية ورفضهم التسليم بالإعلان الإلهى عنه «كإبن الله» ومحاولتهم تفنيد هذا الإسم بشتى الطرق!!

* * * *

ولكن من المسلم به هنا أن لقب «إبن الله» تقبله التلاميذ أولاً دون فهم لكمال معناه ، فأدركوا مدلوله على أنه قد أتى من الله رأسا ومباشرة – وليس كما حسب كثيرون وما يزالون إلى

اليوم بأنه مجرد نبى لعدم ادراكهم هذه الشخصية الفريدة بعقولهم المجردة – أما **تلاميذه الاوائل والذين آمنوا من بعدهم فقد حسبوه جديراً بالسجود الذى لا يجب أن يوجه إلا لله وحده وذلك لاتحاده التام بالآب حيث ظهر ذلك فى كلامه وأفعاله . .!!**

أما الإفتراءات التى قيلت فى هذا الشأن بان المسيح لم يقل عن نفسه « إبن الله، وإنما بولس هو الذى اظهره فيما بعد بهذا الإسم فانها مردودة من واقع نصوص الإنجيل وتصريحاته ، ومن بينه أنه لما قام المسيح بتهدئة العاصفة ورد عنه النص فى متى ١٣ :٣٣ « **والذين فى السفينة جاءوا وسجدوا له قائلين بالحقيقة أنت إبن الله**» بل أن الشياطين نفسها اعترفت له بذلك بحسب القول الوارد فى مرقس ٣ :١١ « **والأرواح النجسة حينما نظرته خرت له وصرخت قائلة إنك أنت ابن الله**» وها هو إنجيل مرقس يبدأ بنفس العبارة فى ١ :١ فيقول : «بدء انجيل يسوع المسيح ابن الله» ، وقد ورد نفس الاسم فى بشارة الملاك للعذراء فى انجيل لوقا ١ :٣٥ فى القول : « فلذلك أيضاً القدوس المولود منك يدعى إبن الله » وعند الصلب **وحدوث الزلزلة جاء اعتراف من قائد المئة الواقف مقابله نصه : «حقاً كان هذا الانسان إبن الله» (مر ١٥ :٣٩)**

فاذا أضفنا إلى هذا كله أن المسيح قد تمت محاكمته لأجل تهمتين واحدة سياسية بأنه جعل نفسه ملكاً بدل قيصر والاخرى دينية بأن جعل نفسه إبن الله وقد جاء عن ذلك قول اليهود لبيلاطس بانه : «حسب ناموسنا يجب أن يموت لأنه جعل نفسه إبن الله» (يو ١٩ :٧) ناهيك عن شهادات إنجيل يوحنا القاطعة عنه «كابن الله» وكيف أن الإيمان به وكذلك عدم الإيمان كليهما له مصير أبدى يرتبط به – فكيف يقال بعد كل هذا أن إسم «إبن الله» من استنباط بولس الرسول!؟

****

• **تفرد المسيح بلقب « الابن الوحيد » :**

من أعظم إعلانات الكتاب المقدس عن الله أنه « آب » هكذا أعلنته المسيحية – ولكنها بينت أن أبوة الله على أنواع منها ما يمكن أن يطلق عليه « الأبوة العامة » وهى تعنى أنه أصل الاشياء وموجدها بصدور خارجى بالقصد والمشئية – وليس من ذاته – ولقد اعترف بهذه الحقيقة اكلمينضس بقوله عن الله : «**أنه آب خالق**

العالم » ، وكذلك تتيان بالقول :«أن الله غير المنظور وغير الملموس قد صار أبا لكل الاشياء المنظورة والملموسة» – وقد سبقهما فى ذلك أفلاطون الفيلسوف بقوله عن الله : « أنه آب لأنه صانع الجميع » – هذا وقد اقتبس بولس عن احد شعراء اليونان فى اعمال ١٧ القول : « لأننا نحن ذريته » ، على أن معنى أبوة الله العامة هذه من ناحية الخلق هو مجرد الاعتراف بوجود الله والاقرار بالعلاقة القائمة بينه تعالى وبين خلائقه :

وفى نطاق هذه الدائرة تسمى « آدم » إبن الله (لو ٣ :٣٨) ، وكذلك الملائكة « أبناء الله – (أى ٣٨ :٦) باعتبار أن «الله» هو أب الجميع فى معنى «خالقهم» وأن أبوته هذه بالنسبة للبشر تسمو عن كل حدود الجنس والقومية والطبقية والانحيازيه . .إلخ .

* * * *

ويتمسح كثيرون فى هذه الابوة العامة لدرجة يخلطون فيما بينها وبين أبوة الله ليسوع المسيح بقولهم أنه خاطب تلاميذه مراراً بلفظه « أبوكم » مثلما كان يقول « أبى » وهم يقصدون بذلك عدم تميز «ابن الله» عن غيره من الكائنات المخلوقة فى ذلك . .

لكن المسيحية تقدمت فى هذا الاتجاه بإعلانها عن نوع آخر من أبوة الله هو « الأبوة الخاصة » فى معنى عجزت الأديان الأخرى عن ادراكه،لأنها بطبيعتها اكثر عمقاً من « الأبوة العامة » التى ترتبط بالخلق وتقف عند حدود معينة لا تتعداها ، أما هذه فهى تختص بيسوع المسيح وهو ينفرد بها ، أنها ليست كتلك التى بالخلق ولا كالتى للمؤمنين بالتبنى!!

ومن ثم سقط الادعاء بان المسيح فى إعلانه عن بنوته الفريدة لم يقصد انها بنوة حقيقية ينفرد بها ، وإنما قصد بنوة روحية يشترك فيها الجميع معه ، فهذا ادعاء كاذب، وأن كان الملائكة والبشر والمؤمنون قد دعوا أبناء الله فى نطاق « الابوة » العامة ولكن شتان بين هذا وبين بنوة الابن الوحيد الفريدة النوع!!

* * * *

ومن المعلوم أن « أبوة الله العامة » مشار إليها فى العهد القديم مراراً قبل التجسد حتى ان كل أبوة قد سميت من الآب لتعبر عن المميزات التى جعلتها ما هى عليه ، لأنها مأخوذة منه وعلى شبه أبوته (أف ٣ :١٥) وهذا يعنى أن الصفة الأبوية لدى الكائنات قد أخذت من الله الآب قبل التجسد ، ولذلك فان

لقب « الله الآب » غير مرتبط بالتجسد . . هذا ما يجب أن نعلمه من جهة الابوة العامة ، أما « أبوة الله الخاصة » فانها لم تعلن إلا بعد التجسد فى أسفار العهد الجديد وهى علاقة نسبية بمعنى انها تستلتزم وجود الإبن – لأن الآب لن يكون أباً أزلياً (حتى لا تكون صفته هذه مستحدثة) ان لم يكن له إبن أزلى ، وإلا فانه يصبح آبا عند ظهور المخلوقات وهذا يدخل الطروء ، والتغير على اللاهوت (الأمر الذى دفع بالبعض إلى استبعاد لقب الله الآب نهائيا) لأن اساس العلاقات فى اللاهوت غير مشروط بظروف الزمن بل هو مسألة سرمدية!!

****

فالاصطلاحان «الآب» و « الإبن » مرتبطان ، ولولا أن « الأبوة » و « البنوة » كانتا قائمتين قبل التجسد ما جاء الإعلان عنهما عند أو بعد التجسد . . . ولذلك فانه لا يوجد فى الكتاب المقدس إشارة إلى أى زمن بدأ الله أن يكون منه « آبا » ولا أى زمن فيه أصبح الإبن « ابناً » – ومن ثم فإنه كما أن أبوة الأب أزلية هكذا بنوة الإبن أزلية مثلها تماماً . .

أما الذين يقولون أن لله تسعة وتسعون اسماً لا يوجد بينها إسم « الآب » ، وهم يرون أن هذا الإسم لا يتناسب مع عظمة الله ، فانهم فى الواقع يتحاشون المعانى التى شرحناها ظناً منهم أنها خاطئة!!

أما شهود يهوه فقد انضموا إلى اليهود فى عصر المسيح الذين قالوا له :« نرجمك لأجل تجديف فانك وأنت انسان تجعل نفسك إلهاً » (يو ١٠ :٣٣) معتبرين اياه مجرد إنسان مخلوق!!

* معنى الولادة فى اللاهوت :

يبدأ ذكر الولادة الأزلية التى للإبن فى مزمور ٢ :٧ فى القول : « أنت ابنى انا اليوم ولدتك » ، ويقال هنا أن اليوم يمثل الحاضر ويدل على الدوام ونفى الزمان ، لأن هذا الحاضر هو السرمدية بعينها – وهذا القول ما قيل عن انسان ما بل عن الإبن : الذى ولادته من جوهر الآب قبل كل زمان إذ هو قبل كل الدهور – وهذه هى الأزلية التى لا بدء لها ، ثابت منها أن كلا الآب والإبن هما معاً فى الوجود الأزلى وهو وجود سرمدى لا ابتداء له ولا انتهاء ولا ينفصل اقنومهما رغم التمييز فيه . . ولذلك فان هذه الولادة ما يحدها زمان بما إنها قبل كل زمان وليس فيها إرادة أو علة ، بل هى والانبثاق فى الجوهر

الإلهى هما بطبيعته فيه ، كاستلزام وجودى تلقائى لواجب الوجود!!

ويسجل أشعياء بالوحى حقيقة هذه الولادة الفائقة التى هى صدور سرمدى طبيعى غير مدرك ولا متناه فى اللاهوت دون مكان ولا زمان بقوله عن الإبن فى ص ٤٨ :١٦ « منذ وجوده أنا هناك » – فهذا القول قاطع بأزلية الإبن!!

ولم يكتف أشعياء بما سبق ذكره بل أرانا بقوله :«وفى جيله من كان يظن» أص ٥٣ :٨ وقد جاء اقتباسها فى العهد الجديد فى أعمال ٨ :٣٣ « وجيله من يخبر به » وجاءت تفاسير تقول : « أن جيله تعنى » معاصريه « وأن حياته هنا انتزعت من الأرض بسرعة – فمن كان يظن ذلك ؟ والبعض يجعلها «سيرته ومن يبرزها» بل أن البعض يقول بأنه قطع من أرض الأحياء ، أما جيله (أى جنسه أو شعبه » فهم عديدون لا يمكن الإخبار بهم . . لكن ذهبى الفم يقول :

« أن لفظة (جيله) هنا تعنى (ولادته الأزلية) – والمعنى المقصود هو : « أن ذاك الذى قطع من أرض الأحياء وهو لم يكتمل حياته ، له جيل – أى ولادة– لا تدرك ولا يعبر عنها ، فمن يخبر بها، فان كيفيتها تفوق الادراك والتعبير»!!

يؤيد ذلك النص الوارد فى مزمور ١١٠ :٣ وهو : « من رحم الفجر لك طل حداثتك » ويمكن أن يترجم الجزء الأول منه إلى : « من الرحم قبل الفجر » وهذا النص قاطع بتلك الولادة السرمدية ، وأما العبارة كلها فتعنى :« أن جمال شبابك الدائم الذى ظهر فى الناسوت سره تلك الولادة الأزلية التى لك والمعبر عنها برحم الفجر ، فان الرحم تشبيه عن « الولادة » ، « والفجر » تشبيه عن « الأزل »!!

أما قول ميخا فى وصفها :« ومخارجه منذ القديم منذ أيام الأزل » (أص ٥ :٢) فهو اعلان سماوى لا يترك مجالاً للشك فى وجود صدورات أزلية هى صدورات اللاهوت الذاتية القديمة بقدمه تعالى – ومعنى العبارة كلها فى هذا الموضوع هو :

« أن وليد بيت لحم فى عرض الزمان محيزاً هو المولود أزليا من الآب فى غير ما حيز »، وأما صيغة الجمع الواردة هنا فى قوله « مخارجه » فقد وردت فى المحدود – «لأن منه – أى من القلب – مخارج الحياة» (أم ٤ :٢٣) فلا عجب إذا استعملت فى غير المحدود . . وإذن فحقيقة المراد بمخارجه هو ولادته الأزلية لكونها صدور غير محدود من مصدر غير محدود!!

وقد أثبت ولادته فى بيت لحم بقوله عنها : فمنك يخرج أى – يولد– وهذه المقابلة الواضحة تبين أن لفظه «مخارجه» تحمل معنى «ولادته الأزلية»– والمعنى المستفاد من النص كله هو أن هذا الذى سيخرج (أى يولد) من بيت لحم هو الذى له المخارج الأزلية أى الولادة فى جوهر اللاهوت وهى التى لا يحدها زمان أو مدة – وهذا ما ينفرد به المسيح ، ولذلك فان هذه النبوة تشير إليه وحده ولا يمكن أن تتحقق فى غيره– وأما مخارجه هذه فانما تعنى دوام الصدور وإتصاله – وهذا يتبين لنا من كون فعلها المستتر فى اللغة العربية قد ورد بصيغة الاستمرار وهو المضارع التام– بل أن لفظة « منذ » نفسها جاءت فى نفس الصيغة (Have - been) **مما يجعل هذه الولادة فى اللاهوت صدور سرمدى استمرارى دائم ومتصل ، ومن ثم فليس فيها من هو قبل أو بعد غيره ولا من هو أكبر أو أصغر!!**

* * * *

وعندما نأتى إلى العهد الجديد نلتقى بلفظة «مونوجنيس» Monogenis اليونانية والتى جاءت على لسان السيد المسيح نفسه فى الاصحاحات الأولى من إنجيل يوحنا ، وقد ترجمت فى اللغات الاجنبية **« بالمولود الوحيد » لأن هذه هى ترجمتها الصحيحة ، وهى هكذا لكونه المولود الوحيد بولادته السرمدية التى هى بطبيعة الجوهر بلا اشتقاق أو تقسيم إذ ليس فيها تتابع أو توالى ، إذ ما ابعدها عن التوالد البشرى – الجسدى – الذى فيه اسبقية فى الزمن والتاريخ بين الآب والإبن البشريين ، الأمر الذى هو محال فى اللاهوت!! ومن ثم فانه ليس فى هذه الولادة السرمدية سابق ولاحق بل هى صدور طبيعى متصل ليس من أفعال علم الله وارادته** . . فولادة الإبن الأزلى إذاً لا تعنى التناسل حسبما يتصوره البعض وهى لا تشبه ولادة البشر وأدوارها ، ولذلك فاننا لا نقول « بان الإبن ولد من الآب » بل نقول «انه مولود» منه بولادة سرمدية ، والسرمدى لا اشتقاق فيه ولا انفصال ولا تلزمه قبلية ولا بعديه . .

وقد شهد لهذه الولادة يوحنا الحبيب فبعدما ذكره عنها مما سلف بيانه اشار اليها فى مواضع أخرى كثيرة من بينها ما جاء على لسان السيد نفسه له المجد فى أص ٧ :٢٩ حيث قال :«أنا أعرفه لأنى منه» وسبق ذلك قوله فى أص ٦ :٤٦ وليس أحداً رأى الآب إلا الذى من الله – ومن الغريب أن معظم

الشراح فى المسيحية لم يتقابلوا مع هاتين الآيتين مطلقاً ، مع أنهما توقفا قولهم الذى ذهبوا إليه بنفى « الولادة » فى اللاهوت . . .

وأما لفظة «منه» و«من الله» فلا تفيدان معنى الاشتقاق أى الانفصال والافتراق فى الجوهر الالهى . . . فانه مع أن لفظة « منه » هذه تعنى لغويا التبعيض (أى أخذ شيء من شيء) ولكن هذا محال فى اللاهوت لأن وروداته أزلية بلا مفارقة وبلا انقطاع ، ولذلك فان لفظة « منه » هذه تفيد الولادة حتما دون أن تفيد الاشتقاق قطعا ، لأن الاشتقاق لا يجوز على الجوهر الالهى اذ هو يكون بذلك قابلاً للتجزئة والتقسيم وهذا يؤدى للتفكك والعدم وحاشا لله من ذلك . . .

ولذلك فان حقيقة ولادته هى أنه مولود من الآب بغير انقطاع ولا انفصال ميلادا طبيعيا دائما معه ثابتا فيه ، وبعد تجسده لم ينفصل عن ابيه ولم ينقطع ولم تفرغ ولادته ، بل هو دائما مولود منه أبداً – لأننا إذا قلنا أنه ولد وفرغت ولادته فصلناه عنه بل نقول انه والده أبداً وهو لم يزل ولا يزال أبداً مولوداً منه بغير انقطاع ولا إنفصال . . .

أما كيف أن الإبن هو مولود وما خرج من الآب فلا ينظر إليه ولا يحس به ولا يتيسر قبوله إلا بالإيمان ، لأن الإبن مولود منه ومستمر فيه وذلك مما هو فوق الكيف : وهما بذلك آخر فى آخر ، الصادر ليس خارجا عن مصدره لوحدة جوهرهما . . . مما ينفى أن يكون فى الولادة وكذلك الانبثاق معنى الاشتقاق أو الانفصال مما قام فى مخيله من قالوا بذلك ، لأنهما سرمديان ومعنى السرمدية المساواة من كافة الوجوه والديمومة بلا تغيير!!

أما المقصود بوصف يسوع المسيح الوارد فى ٢يو٣ بأنه : «إبن الآب بالحق والمحبة» فان المعنى الماثل فى هذه الآية الصريحة هو : أن قوله « بالحق » اثبت أن ولادة الإبن ولادة حقيقية فعلية لا مجازية معنوية ، وقوله «بالمحبة» يعنى انه «ابن محبته» كالمولود فى عرض الزمان الذى شهد له الآب قائلا : هذا هو ابنى الحبيب الذى به سررت ! نعم أنه إبن الله الحبيب أزليا ولكن كانت محبة الآب لإبنه محبة طبيعية وسروره به سرور تلازمى لا بداية له ولا نهاية ، ولكن سروره به فى حادثه الاردن كان إعلانا متعلقاً بالانسان يسوع المسيح!!

****

نستخلص من كل ما سبق أن « يسوع المسيح » ليس هو «إبن الله» لأنه كان هكذا فى وقت ما، ولا لأنه اصبح كذلك عند التجسد بل هو هكذا بالاطلاق بلا قيود وبلا حدود ، وان الاعلان عن ذلك هو اعلان قضائى نهائى موجه للخلائق كلها عندما ابتدأ وجودها وإلى نهاية الزمان المتقيد به هذا الوجود . . .

ومع ان الشيطان قد جعل « الولادة فى اللاهوت » مجالاً للجدل العنيف وألقى حولها ظلال الشك حتى عند الذين وصلتهم عن طريق الوحى ، وبذلك فقد بث فى عقول البشر النفور من لفظة «ابن الله» بشكل عام ، مستغلاً فى ذلك حيرة العقول من جهة استحالة الإحاطة بكامل معناها الذى يتجاوز كل ادراك مما يؤكد عدم إمكان استنباط العقل البشرى لها ، إلا انها رسخت لدى المؤمنين واصبحت صخرة ايمانهم – وهى الصخرة التى اشار المسيح بأنه سيبنى كنيسته عليها – أى صخرة الايمان به كابن الله!!

ولذلك فانه يأخذنا كل التعجب من الذين يحاولون تسفيه عقولنا لانها قبلت الاعلان عن «ابن الله» بموجب حكم الوحى بنصوصه الواضحة عن ذلك ، مع ان هذا القبول من جانب عقولنا هذه يضعها فى اسمى مراتب التعقل لانها رفضت التوقف عند حد مستوى الفكر البشرى القاصر وتجاوزته إلى التسليم بما أعلنه الوحى عن « ابن الله»!!

• تشعب التفاسير عن الولادة وتفنيدها :

لاشك أن « الولادة » فى اللاهوت المنسوبة لإبن الله الوحيد حقيقة إيمانية واجبة التصديق والقبول ، لأن لفظة «الوحيد» بحسب الاصل اليونانى والترجمات الاخرى – كما سبق أن رأينا – صحتها « المولود الوحيد » مما يجعل تلك الولادة أمر محقق يستند إلى الكثير من نصوص الوحى التى أشرنا إليها من قبل . . .

وفى الواقع لم يكن هناك من سبب لإغفال هذه الحقيقة فى لغتنا العربية سوى الاعتراض الذى ظهر بعد سته قرون مرت على المسيحية ومضمونه: « هل يلد الله؟ » وقد تبنى هذا التساؤل الاستنكارى على أساس تشبيه تلك الولادة التى فى اللاهوت بما يحدث بين الناس ، حيث أن تقرير الاعتراض يقول عن الله بأنه :« لم يلد ولم يولد » ويلحق به قولاً غريباً لتأييده وهو :« إنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة » وهذا إنما يدل على هذا الظن الشنيع الذى ذهبوا إليه ولم يكن وارداً

فى المسيحية أصلاً ، ولا كان له أثر فى نصوص كتابها . . . وقد استوجب هذا الظن منا استبعادنا كلية فكرة « الولادة الجسدية » فى اللاهوت ، إذ لا محل للتفكير فى شىء من هذا ، لان الله روح لانهائى وغير مدرك ولا يجوز أن يوصف جوهره بالجسمية التى تقتضى التحيز والمحدودية أيضاً . . .

ومن ثم فإن الولادة فى اللاهوت ليست ولادة جسدية تناسلية ، وإنما تفهم الولادة هنا بالوضع الروحانى – لا الجسدى – وهى تعنى بروز مولود نظير والده فى الجوهر بدون تقدم الوالد على المولود فلم يكن من قبل مولد الإبن زمان ولا له بدء ولا كان من بعد ما لم يكن ، بل لم يزل الإبن مع الآب وفيه أزلى مع أزلى مولود منه بلا بدء للوالد ولا للمولود!! مما ينفى القول بأنه «إبن» دون أن نعرف عن سبب تسميته بذلك حسبما يزعمه البعض من أن السبب غير معلن فى الكتاب المقدس وأنه غير وارد به الأمر الذى اثبتنا عدم صحته بالنصوص العديدة الواردة فى العهدين القديم والجديد متضمنه بكل وضوح وجلاء السبب وهو هذه الولادة الفريدة التى فى اللاهوت!!

فهو إبن أزلى وحيد من الآب وفيه ومعه ، بنوته حقيقية وليست اسمية ، جوهرية طبعية لا انتسابية مصنوعة ، انها بطبيعة الجوهر وليست بالقصد والمشيئة (كسائر المخلوقات) ولذلك فانها بنوة فريدة لا مثيل لها ، وليست هى مجرد تسمية!!

ولذلك فانها لم تكن بالخلق ولا بالتبنى بل هى بطبيعة الجوهر ، ومن ثم فانها لم تكن وهما أو مظهراً أو قياسياً أو اصطلاحا . . . وهى لم تكن أيضاً مجرد حصول الإبن على مكانة المحبة الخاصة حسب تفسيرهم لحضن الآب وأن عبارة :« رأينا مجده كما لوحيد (لمولود وحيد) من الآب لا تعنى الولادة بالمرة على حد قولهم وإنما هى مجرد تشبيه عاطفى من رسول المحبة به يشبهه بالمولود البشرى الوحيد لأبيه ! وهكذا أدى إنكار هذه الولادة الفائقة لسبب أو لآخر بالمفكرين إلى جعل بنوة المسيح إنما هى على سبيل المجاز المطلق مما يجعل هذه البنوة غير حقيقية – ولكن الوحى كما رأينا حرص على تأكيد إنها حقيقية بدون أدنى شك . . . ومع ذلك فقد وصل بهم الحال أن جعلوا هذه البنوة نسبة داخلية فى اللاهوت هى نسبة التماثل والتشابه دون أن يخبروننا بمصدرها أى من أين جاءت – وإنما جعلوها تدل على المعادلة فى الأقنومية والأزلية والعمل والمقام . . . ثم ضمنوها معنى سرية الشخصية ، وكل

ذلك لتجنب الواقعية فى معنى هذه الولادة ، وقد ظنوا أن كونها روحانية ينفى عنها انها حقيقية دون حاجة للمعنى الجسدى الذى يعتبره كل مسيحى تجديف على الله . . . .

* * * *

- **تجديف شهود يهوه بسبب هذه الولادة ومجابهته :**

أما شهود يهوه فقد وجدوا مرتعاً لضلالهم الواسع النطاق باعتراضهم على لقب مريم العذراء بأنها «والدة الإله» – مع أنه قد وضع للرد على بدعة نسطور الذى حسب أن المسيح مجرد إنسان قد تنزه فحّل فيه اللاهوت ، فتقرر فى مواجهته بأن هذا الذى ولد من العذراء هو الإله متأنساً . . .

لكن هؤلاء المضلون قد انطلقوا فى اتجاه التهكم التجديفى إلى القول :« هل كانت هناك انثى فى السماء ولد الله بواسطتها إبنه الوحيد؟ » ويصل بهم التجديف إلى القول : » . . . ثم لسبب ذكر الولادة يجب الا نتصور أن لله رحم كا للأنثى!! هكذا هم يتساءلون ليستخرجوا من تجاديفهم هذه القول المشئوم أن الإبن الوحيد كان أول خليقة الله المباشرة دون واسطة زوجة أو انثى . .!! ولكنهم بجانب أقوالهم هذه اعتنقوا بدعة إنكار الوالد والمولود مع الذين رأوا عدم امكان وجود التوالد فى اللاهوت لأنهم تصوروه بما هو متناهى فى الفظاعة إذ ظنوه شبيه بما يتم بين ذوى الأجساد الحيوانية من زواج واتحاد بانثى وهو ما لا يخطر على البال قط!!

وهم فى ذلك ببراعة شيطانية قد خلطوا بين الولادة والخلق ، مع أن الولادة هى صدور داخل بطبيعة الجوهر برز به أقنوم الكلمة – الإبن – فى الأزل المطلق دون مفارقة أو انفصال فكان بذلك منه ومعه وفيه وذلك بحسب نصوص الإنجيل نفسه :

وهذا ما أدركته المسيحية بما قاله البشير يوحنا فى فاتحة إنجيله عن « الكلمة » واتجه منه إلى التحدث عن « الإبن الوحيد » (المولود الوحيد) ، وقد ربط بين التسميتين « الكلمة – والإبن » فإنه قد أكد بذلك بأن يسوع المسيح هذا إذ هو بالطبيعة «كلمة الله »كان القول بأنه « إبن الله قولا صحيحا لا غرابة فيه ، لأن الناس لا يستغربون من تسمية الكلمة المنطوقة ب« بنت شفه » لصدورها منها– **فكيف لا يكون المسيح هو إبن الله الأزلى وهو ذات كلمة الله! ؟**

وولادته هنا أزلية والأزلى لن يكون مخلوقا لأن المخلوق محدث ، ومن ثم فان الخلط الذى ابتدعه شهود يهوه فيما بين هذه الولادة الأزلية والخلق المحدث أمر فى حكم المستحيل المطلق الذى لا يجيزه عقل ولا منطق!!

* * * *

ولقد كان من الطبيعى أن يتجه تفسير أغلبية المذاهب الأصولية فى المسيحية إلى عكس ما قاله شهود يهوه تماما ، فوصفوا المسيح بأنه – وحيد الجنس – أى الذى لا يدانيه ولا يشاركه أو يساويه أحد فى بنوته هذه التى يرون بانها إنما تعنى المساواة والمعادلة لله وأنه واحد مع الآب فى الجوهر والقدرة والمجد – وقولهم إلى هذا الحد لا غبار عليه لكنهم يتجاوزونه إلى القول :

* ان لقب « إبن الله إنما كان استعماله على سبيل المجاز فقط ، وذلك رداً منهم على بدعة شهود يهوه سالفة البيان ،وهم حسبوا بنوة المسيح هذه هكذا لكى يؤكدوا أن البنوة لا تعنى الخلق ، وأن المسيح لذلك لا يسمى «إبن الله» لأن الله خلقه ، بل أن التجسد نفسه لم يغير من مركزه كالإبن الأزلى – فهو فى الأزلية غير المبدعوة – الإبن الوحيد – واستمر مقيما فى هذه العلاقة عندما ولد فى عرض الزمان أى أنه عندما ظهر فى الجسد استمر محتفظا بكل ما كانه كابن الله الأزلى بدون ادنى تغيير!!

ومن ثم فانهم فى ردهم على شهود يهوه بانه لا يعقل مطلقاً أن يكون معنى البنوة هنا « الخلق » وهم فى ذلك مصيبون ، ولكنهم فى تجاوزهم هذا الحد إلى اعتبار هذه البنوة مجازية قد وصل بهم ذلك إلى وصف هذه البنوة بانها بدون ولادة أو خلق وهنا قد فاتهم التمييز بين الولادة والخلق بسبب المجاز، ولم يقدروا حكمة واضعى قانون الإيمان النيقوى وحسبوهم بسطاء على غير واقعهم فى حين أنهم قد ميزوا العقيدة الصحيحة فى اللاهوت من كل ناحية وحددوا هذا الجانب الذى نحن بصدده بالقول : « ونؤمن برب واحد يسوع المسيح إبن الله الوحيد المولود من الآب قبل كل الدهور ، نور من نور، إله حق من إله حق ، مولود غير مخلوق »!!

وإذاً بسبب القصور الذى تسبب عن عدم الإتزان فى بعض المجالات المسيحية كرد فعل لهجمات المبتدعين الشرسة كالتى أشرنا إليها، قد جعلوا بنوة المسيح مجازية

معنوية نسبية تعبيرية تشبيهية بل أن أحدهم جعلها اعتبارية أدبية فقط ظناً منهم أن التوالد ليس واردا هنا – في اللاهوت– وقد اثبتنا ما ينفي ذلك ، لكنهم تمسكوا من وجهة نظرهم بالقول : أن الله لم يلد ولم يولد . . . . » وهكذا درج المفسرون المحدثون – حتى بين ورثة قانون الإيمان نفسه – في قبول هذه العبارة ، وهم يعلمون أنها تخص أهل التوحيد المطلق . . .

وهم قد خرجوا بذلك عن معنى ومفهوم الولادة في اللاهوت بطبيعة الجوهر ظنا منهم انها هي والتناسل الذى ينسب إلى المخلوقات على حد سواء ، فاعلنوا استناداً إلى ظنهم هذا بأنه ليس هناك والد ولا مولود في اللاهوت ، وانما الأبوة والبنوة في نظرهم مجرد تعبير بشرى ليكون مفهوما منا ليس إلا . . .

وأننا لنتساءل ماذا حدث لمعلمي المسيحية وقادتها حتى وصل بهم الحال إلى ترديد نفس الكلام الذى يقوله الغير بدون روية أو امعان فينكرون الولادة في اللاهوت ويهزأون بها ، وكان الأولى أن يسخروا من عدم فهمهم لمعناها رغم عجز اللغة عن وصفها لانها تفوق كل إدراك بشرى – قال أبو الفرج :« ان الكلمة الأزلى إبن الله لفظ ينفر منه السمع وينبو عنه الذهن فاذا أيده البرهان ظهرت حجته!!»

* * * *

• تحقيق التميز الخاص الذى يعتبر به الابن أنه الاعظم :

ترى ماذا تكون هذه الولادة في اللاهوت التى تجعل بنوة المسيح حقيقية وفريدة وبكيفية تليق بالله ، وهى لذلك ليست مجرد اصطلاح أو اسم معنى على سبيل المجاز أو تشبيه عاطفى ، وإنما هى بطبيعة الجوهر مما يتفق مع الوجود الإلهى المطلق لمن يسميه الوحى : « الابن » و« الابن الوحيد » و« مجد الرب » و« الحكمة » و« ملاك الرب » و« الرب » و« الله» ، ومن ثم فان التحدث عنه إنما هو عن شخص طبيعته فائقة لا يمكن أن توجد تعبيرات كافية تبين لنا اصله وقيمته أو تصف لنا كيانه وطبيعته : إذ هو حكمة الله المطلقه والعقل الالهى اللامتناهى الكائن قبل الدهور في البدء المطلق ! أنه المولود الوحيد من الله الكائن قبل كل خليقة منظورة وغير منظورة ، وكل الابرار والأنبياء تطلعوا إليه بعيون الذهن النقية واعترفوا به وقدموا له ما يليق به من سجود وتكريم!!

وهكذا يتضح لنا من كلمة الله أن هناك ثلاثة انواع من البنوة : عامه –

وخاصة- وفريدة، الأولى لكل البشر ، والثانية خاصة بالمؤمنين ، وأما الثالثة فهى من نوع فريد لا مثيل له ولا نظير إذ يظهر فيها كل خصائص الألوهية منها «الكينونة الدائمة»، أى «السرمدية» و«الوجودالمطلق »!!، وهو بذلك يتميز عن الملائكة أيضاً إذ هم أبناء الله بحكم الخلق – أما بنوة المسيح الفريدة فهى بنوة حقيقية بولادة حقيقية أزلية جوهرية كولادة النور من النار والاشعة من الشمس بحالة تلازميه لا انفصال فيها ولا افتراق!!

ولذلك جاء فى وصفه أنه بهاء النور السرمدى الدائم والنور الحقيقى الذى ينير كل انسان ، وان مجده أزلى ذاتى لا اكتسابى حادث:

وواضح هنا فى شأن ما سلف ذكره أن كل ما يتعلق بعالم الروح يختلف اختلافا بيناً عما يتعلق بعالم الحس ، ولكن لا يتنافى عدم الحرفية مع الحقيقة الروحية!!

****

ويلخص العقاد فى كتابه «الله» ص ١٥٥ الموقف من جهة بنوة المسيح بقوله: بأن بين الأمور التى تشعبت فيها المذاهب المسيحية تفسير بنوة السيد المسيح فبعضهم قال انه ابن الله على المجاز بمعنى القرب والايثار – على سائر المخلوقات وقائل أن السيد المسيح هو ابن الله على الحقيقة التى يفهمها المؤمن على نحو يليق بالذات الالهية!! **والرأى الأخير هو الذى يتفق – بعد ما قدمناه من بحث – مع اعلان الوحى ويقبل مسألة الولادة فى اللاهوت على الوجه الروحانى الفائق للادراك :**

يؤيد ذلك أنه هو الذى وجه له الله الخطاب – له دون سواه – الذى يقول فيه « أنت ابنى » هذا التخصيص لم يخاطب به أحد قط غيره ، كما أعطاه الله اسم الجلالة « الله»: وارداً فى مزموره ٤٥ ومقتبسا فى عبرانيين أص ١ فى القول : «كرسيك يا الله» والروح القدس يحيى جلوسه على العرش هنا والآب أيضا يقول عن ذلك « انى مسحت ملكى » (مز ٢) وقد وجدناه يعمل اعمال الخلق والعناية- وهى اعمال الله الرئيسية – حسبما ورد عنه فى الاصحاح سالف الذكر من العبرانيين فمن يكون هذا الذى لا يفنى ولا يتبدل سوى الله! ؟ ومن يكون هذا البكر (الذى هو أعظم من الملائكة) الذى ستسجد له كل ملائكة الله إلا الله وحده!؟ ومن هو حامل كل الاشياء بكلمة قدرته!؟ أنه ليس مجرد نائب أو ممثل لله ولا هو صورة مخلوقة شبيهة بالجوهر ، لأنه هل للمخلوق قدرة ليحمل بها شيئا ولو ذات نفسه فقط!؟ ومن المعلوم أن

« حامل » اسم فاعل للفعل « ناسا » المشتقة منه لفظة رئيس ، والمحمول هنا هو كل الاشياء أى العالمين بأسرها ، وسيبقى حاملاً لها هكذا إلى ان يأمر بانحلالها وابدالها وذلك بكلمة قدرته عينها!!

* * * *

وشتان بين هذا الذى أوردناه عنه وبين مزاعم المفترين المتمثلين فى شهود يهوه كقولهم عن المسيح : « أنه كان فى صورة الله وحدها ، إلا أنه لم يكن الكلى القدرة نظير أبيه » – وقد فاتهم أن هذا يناقض تماما ما جاء فى يوحنا ١٤ :١٠ « الآب الحال فىّ هو يعمل الأعمال » – فهل تكون النتيجة إذا من وراء أقوالهم أن يهوه الله الحال فى المسيح والذى يعمل المعجزات بقدرته الإلهية السرمدية لم يكن كلى القدرة – وهل هذه شهادة منهم ليهوه – أم ضد يهوه!؟

أما زعمهم عن «ملك الدهور» الوارد ذكره فى (١ تى ١ :١٧) بأنه هو السرمدى الوحيد (يهوه) فانه بمراجعة القرينة – أى ما حول هذه العبارة – نرى أن الاشارة فيها فى ع ١٦ السابق إنما هى ليسوع المسيح ، فبعد أن ذكر إسمه بالناسوت « يسوع » عاد فاعطاه المجد « كملك الدهور » مبينا بذلك من هو فى اللاهوت – فهو ملك الدهور أى مرتبها والمتسلط عليها – فإذا أدعى المفترون بأن المسيح قد رآه الناس على غير ما جاء فى وصف ملك الدهور – فالجواب على ذلك فيما وصف به فى نفس الرساله (٦ :١٦-١٣) وهو أنه ساكن فى نور لا يدنى منه أيضا الذى لم يره أحد من الناس ولا يقدر أن يراه الذى له الكرامة والقدرة الأبدية مما يدل على أنه هو بنفسه ملك الدهور!!

ألا نرى فى هذا كله جانب آخر من جوانب عظمة المسيح ، مثبتا أن يسوع المسيح هو الأعظم لأنه وحده ابن الله الوحيد!!

* * * *

الفصل الثامن

هو الأعظم لأنه أعظم رسول

« فأخيراً ارسل اليهم ابنه قائلا يهابون ابنى » (متى ٢١ :٢٧)
« فاذا كان له أيضاً ابن واحد حبيب اليه أرسله أيضاً اليهم أخيراً » (مرقس ١٢ :٦)
« الآب قد أرسلنى » (يو ٥ :٣٦)
« وهذه هى الحياة الأبدية ان يعرفوك انت الاله الحقيقى وحدك ويسوع المسيح الذى ارسلته » (يو ١٧ :٣)

* * * *

* المسيح فى إرساليته – هل هو الله :

فى ضوء ما سبق أن قدمناه من براهين عن « لاهوت المسيح » وجدنا بعضهم يتخذ موقف الهروب من ذلك بانكار وحى الكتاب المقدس – الذى أثبتنا فى أبحاث أخرى بطلانه – لكنهم يفعلون ذلك لتجنب النصوص الواردة فيه فى هذا الشأن ، فى حين يتخذ البعض موقفاً آخر وهو الزعم بأن اختلاف المسيحيين فى المجامع السكونية من جهة تحديد معنى اتحاد اللاهوت بالناسوت فى المسيح فيما يقال عنه بالطبيعة الواحدة أو الطبيعتين يعتبر فى نظرهم مدعاة للطعن فى لاهوته ، فى حين أن اختلافهم هذا إنما هو وجهات نظر تختص بالشكل أى من جهة التعبير فقط لكنهم يجعلونه ذريعة لانكار لاهوت المسيح كلية . . .

وهناك من يسىء استخدام علم مقارنة الاديان فيتجاوز حدود المقابلة بين اوجه الاتفاق والاختلاف فيما بينها وذلك بتحليل العقائد نفسها – على غير اختصاص – لاستخدامها فى استعداء عقائد دين ما على دين آخر بأن يسلط عليها مفاهيم معينة تخص ذلك الدين بقصد رمى عقائد الدين الآخر بالسفه والصاق تهمة الكفر باصحابه – فى حين أن ذلك يخالف قاعدة حرية العقيدة التى تتصل بما ينعقد فى ضمير صاحبها وهو بذلك مسئول عنه وعما تجلبه من مصير عليه دون سواه – ومما يؤسف له أنه كنتيجة لهذا الاتجاه المستبد يريد بعضهم فرض الرأى والعقيدة الخاصة

ومصادرة وتقييد كل مايخالفهما ، رغم أن ذلك ممنوع منعاً باتاً بموجب القانون الطبيعى والوضعى والميثاق العالمى لحقوق الإنسان وإقرار الأديان نفسها بأن لا إكراه فى الدين وأن العقيدة لا تكون بالفرض والضغط وإنما تستند إلى الحجة والاقناع!!

* * * *

ويأتى فى أعقاب ذلك كله فى مجال « إرسالية المسيح » قوله الوارد فى الإنجيل ونصه « من يقبلنى يقبل الذى أرسلنى» (لو ٩:٤٨) والتعقيب عليه بالقول: «من الذى أرسله – أليس الله؟ » وكيف يكون أن الله هو الذى أرسله ويكون هو نفسه بعد ذلك الله!؟ ويأتى من وراء ذلك استطراد إلى القول : « أن المسيح لم يقل عن نفسه أنه الله (كتاب دعوة الحق صفحتى ٢٧١، ٣١٤)

أما عن التساؤل المتكرر : هل المسيح هو الله ؟ ولماذا لم يعلن عن نفسه أنه الله؟ فقد وضع أحدهم كتاباً فى هذا الموضوع بنفس العنوان : « هل المسيح هو الله؟ » وقد وجدناه فى بحثه يجتهد فى أن يقدم تفسيراً بالعديد من البراهين دون أن يحدد إجابته . . . أما الوحى فقد رأيناه يخاطب السيد المسيح بلفظ الجلالة «الله» فى مواضع أبرزها : «وكان الكلمة الله» و «كرسيك يـاالله و «الله ظهر فى الجسد» و «كنيسة الله التى اقتناها بدمه» و« والكائن على الكل إلهاً مباركًا » .

وأما لماذا لم يعلن المسيح عن نفسه أنه « الله بصريح العبارة كما أعلن عن أنه «ابن الله» فذلك للأسباب الآتية :-

١ – لأن الله فى صورته الجوهرية لا يُرى – وهذه الصورة بالنسبة للأقانيم الثلاثة واحدة ولكنها تختص بأقنوم الآب الذى يتمثل فيه الذات أى الوجود الإلهى المطلق المعروف بالله :

وقد سبق أن رأينا بحسب القرائن فى مواضعها أن « ملك الدهور الذى لا يُرى إذ هو فى نور لا يُدنى منه وصف راجع إلى يسوع المسيح نفسه – وإنما باعتباره صورة الله الشبهية – التجسدية أرانا الله فى هذه الصورة لا فى تلك (الجوهرية) لأنها بالطبع ممتنع عن الخلائق رؤيتها – ولهذا كان طبيعياً من هذا الوجه أن لا يعلن المسيح بأنه الله لأن الله لايزال كما هو فى ذاته غير المنظور بوجه مطلق حتى بعد أن رأيناه فى صورة تجليه فى صورة يسوع المسيح التى بموجبها قيل فى وصفه أنه « صورة الله غير المنظورة »!!

٢ – ولأن جوهر اللاهوت وهو واحد ، وهو لكل أقنوم من الأقانيم الثلاثة كاملاً بدون تقسيم أو تفريد ، وذلك لا يجيز بحكم وحدانية الجوهر لأقنوم من الثلاثة أن يكون هو الله بالإستقلال عن الأقنومين الآخرين :

وإن كان « الآب » من هذه الناحية يتميز بكونه أصل الوجود ومصدره إلا أن الأقنومان الآخران الصادران منه صدوراً داخلياً سرمدياً أى بلا بدء أو إنتهاء ، وهما بذلك معه أصول ثابتة فى اللاهوت يتمثل فيها الوجود والنطق والحياة!!

٣ – إن الإعلان عن لاهوته فى البداية قد جاء تدريجياً وعلى مراحل فقد حجبه ولم يرد إظهاره إثباتاً لصدق بشريته وتحقيقاً لها من جهة ، ولأنه كان يصعب معرفة كيفية التعامل معه لو كشف لاهوته فى وقت مبكر قبل الصلب والقيامة والصعود :

يؤكد ذلك أن الرسل – بإعتبارهم يهود – كانوا ينظرون إليه فى البداية كإنسان ، وهو وصف نفسه أمامهم كابن الإنسان فلم يتصوروه – مبدئياً – إلهاً على الإطلاق إذ كان أمامهم فى صورة إنسان . . وكان اليهود من حولهم يعتبرون أن الاعتراف بأن انساناً ما هو الله يعتبر تجديفاً يستحق الرجم فى الحال – شأنهم فى ذلك شأن من يكفرون اليوم من يعتقدون أن المسيح هو الله – وما سلف ذكره لم يكن يناسبه أن يعلن المسيح عن نفسه أنه «الله بالإطلاق» – ولذلك احتاج الرسل والأتباع إلى فترة زمنية كافية ليتحققوا من أقواله وأفعاله من أنه لا يمكن أن يكون مجرد إنسان ، وكان توما لسان حالهم بعد قيامته إذ أعلن إيمانه فيه جهاراً بقوله « ربى وإلهى »!!

٤ – والرسل كيهود أيضاً لم يكونوا يتوقعون أن يظهر الله فى هيئة إنسان ويكون منظورا من الناس ، إذ انهم كانوا يستبعدون ذلك لعدم وضوح رؤيتهم لما أعلنه الوحى عنه – نعم أنهم كانوا ينتظرون «المسيا» لكنه بالنسبة لأفكارهم التى توارثوها عن أجدادهم لم يكن سوى رسول ممتاز من عند الله ، وليس هو ذات الله . . . ولذلك ترك يسوع المسيح أمر إعلان حقيقة لاهوته للإعلان التدريجى الذى كان يزداد إشراقاً مع الزمن حتى يملأ الدنيا بالضياء . . .!!

أما الأوصاف التى نسبها الوحى له ، فقد دلت على أنه «الله» إذ لا يمكن أن يتصف بها غير «الله» وهى – على سبيل المثال لا الحصر – ملك الدهور – ملك الملوك – ملك المجد – ملك المسكونة

– ملك الشعوب – ملك القديسين ، ولذلك قيل بشأنه :« من لا يخافك يارب ويمجد اسمك » (رؤ١٥)

****

*** حقيقة إرسالية الابن التى ذكرت فى الكتاب المقدس حوالى أربعين مرة – وما هو المقصود بها! ؟ فقد قال المسيح عن نفسه أنه مرسل من الآب ، وأن الآب أرسله . . .**

وأول ما يثيره المعترضون هنا هو :« كيف يكون هناك شخص عند شخص آخر ويكون هو ذلك الشخص الآخر نفسه! ؟ وما دامت هناك ارساليه من الآب للابن فلابد أن يكونا شخصان مختلفان!؟

وطبعا هذا هو المستفاد مما دونه الوحى نفسه للتعبير عن أقنوم وآخر – الأمر الذى استخدمت فيه المسيحية لفظة « أقنوم » لانها تعنى « الشخصية المتميزة غير المنفصلة » – وهذا ما لا يتوافر فى لفظة « شخص » التى تعنى الشخصية المنفصلة – وقد استخلصنا من معنى الأقنوم وحدة الأقانيم فى الجوهر مع تميزهم فى الأقنومية – أى الوجود الخاص فيه – وعلى أساس هذا التمييز الأقنومى يقوم ما بين الآب والابن من علاقة ومخاطبه – لان ذلك هو ما يحقق وجود الأقانيم وتميزها ووحدتها معا فى آن واحد ، وأن كان بالطبع يسمو فوق مدارك العقول ، ومن ثم لا معنى للزعم بأن صرخة المسيح على الصليب – هل كانت لنفسه أم لغيره وأمثال ذلك من المخاطبات فقد ورد عند المعترضين ما يشابه ذلك مثل :« حمد قديم لقديم » و« سبحانك لا نجد ثناء عليك مثلما أثنيت به على نفسك » و« أن لا ملجأ من الله إلا إليه »!!

فمع أن هناك تغاير وتباين بين الآب والابن – لأن اقنوم الآب غير اقنوم الابن إلا أنهما واحد فى الجوهر : وهذا ينفى أن يكون فى الارسالية أن الله لم يعد واحداً بل صار اثنين أحدهما يُرسل الآخر وأصحاب هذا الرأى يجدون صعوبة فى ذلك وأن يدور بينهما الحديث لأنهم يرون أن هذا لا يتفق مع وحدانية الله ولكنهم يتجاهلون أن الوحدانية فى المسيحية هى « وحدانية مقنمة » أى « ذات أقانيم » فيها الأقانيم متميزة بينها علاقات من التى ذكرت بدون استقلال فيما بينها أو إنفصال لوحدة الجوهر الإلهى الذى لها – والمسيح هنا بحسب الأقنومية هو الإبن ، لكنه بحسب الجوهر هو الله!!

****

وهنا يواجهنا أمر آخر وهو :« هل من اللازم أن يكون المُرسَل أسمى من المُرسِل – والا يمكن أن يكون هناك اثنان متساويان ومع ذلك يُرسل أحدهما الآخر لأجل ممارسة أمور موافقة لإرادتها معا – وذلك لان الارسال إما يصير بحسب السيادة وإما بحسب الارادة وواضح أنه بين الأقانيم لا يوجد سيد وعبد ، ومن ثم لامكان لارسال تتفاوت فيه الدرجة . . ومن ثم ليس هنا تفاوت ولا فرق بين الرسول ومن أرسله إذ ليس هناك تابع ومتبوع ولا اضطرار أو ارغام! ! فالارسالية هنا ليس تنقيص لشخص المُرسِل ولا تقليل لقيمته – والقول بغير ذلك إنما يدل على التشامخ والكبرياء ، وهذا ما لا يجوز ادخاله على الأقانيم الإلهية!!

وفى هذا الضوء فان محاولة التفرقة التى زعمها أولئك المضلون بين الآب ويسوع المسيح بسبب الارسالية إنما هى أمر باطل من مخترعاتهم التى ابتدعوها للحط من كرامة يسوع المسيح وهيهات أن ينالوا مرادهم هذا .

****

*** نصوص الوحى التى ذكرت هذه الارسالية :**

لقد كان أول ذكر لها فى أشعياء ٤٨ :١٦–١٢ حيث نجد من يقول عن نفسه : « أنا هو . أنا الأول وأنا الآخر ويدى أسست الأرض ويمينى نشرت السموات » يدل ذلك على أنه الله الخالق « يهوه » وهذا الوصف الذى جاء عنه هنا ورد منطوقا على لسان السيد المسيح فى فاتحة سفر الرؤيا . . . هذا الذى يوصف هكذا بأوصاف يهوه عينها يقول عن نفسه أن اثنين معه قد أرسلاه هما السيد الرب وروحه ، والثلاثة هنا أزليون متساوون ، لأنه لا يكون هنا المُرسَل دون المُرسِل منهما فى المقام لأنه بحسب هذه النصوص هو الله الخالق ، ويقينا لا يوجد كائن أعلى منه لذلك لا يمكن أن يكون المُرسَل منهما أعلى منه ، ومن ثم فاننا نرى فى العبارة كلها برهانا قاطعا من العهد القديم على وجود الثلاثة أقانيم ، وأن هناك اثنان منهم يُرسلان واحداً مما يدل على أن الله الواحد مثلث الأقانيم!!

وقد جاء ذكر هذه الإرسالية أيضاً فى سفر هوشع ١ :٧,٤: « فقال له الرب (يهوه) . . . وأما بيت يهوذا فارحمهم وأخلصهم بالرب الههم » هنا المُرسِل والمُرسَل يحملان كليهما اسم الرب –

فكيف يكون هذا!؟ هل هناك الهان وربان ، أم إله واحد ورب واحد غير أنهما أقنومان متميزان أحدهما هو الآب والآخر هو الابن!!

ومثل هذا ما ورد في سفر زكريا ١٠ :١٢ ونصه :« وأقويهم بالرب فيسلكون باسمه يقول الرب » وأيضاً ما جاء في أص ٢ :٩,٨ القول : «هكذا قال رب الجنود بعد المجد أرسلني . . . فتعملون أن رب الجنود قد أرسلني » وليس من معنى لقوله «رب الجنود أرسلني وهو في الوقت نفسه « رب الجنود » ولا حل لهذه المعضلة إلا في تعدد الاقانيم في اللاهوت الواحد وكونهم من درجة واحدة!! وتظهر نفس الحقيقة في أص ٣ :٢ «فقال الرب للشيطان لينتهرك الرب يا شيطان» دون أن يقول «انا أنتهرك» مما يبين أنه هو والآب واحد في الجوهر ، ومع التميز الأقنومي الواضح هنا في تكرار لفظة « الرب » فان الوحدانية ظاهرة أيضاً إذ أن الجوهر الواحد لكليها هو مصدر الانتهار!!

أما العهد الجديد فيذكر عن هذه الإرسالية انها آخر ما قام به الله في معاملاته مع البشر فهو الذي أرسل أخيراً إبنه الواحد الحبيب له فكان هو خاتم المرسلين بحق حاملاً شريعة الفضل والكمال للعالمين ، وهو يعلم أنه رسول الآب للبشرية كلها دون أن يحتاج إلى من يشهد عن أنه رسول الله!!

****

• فضل الابن في أن يكون العبد الكامل بسبب هذه الارسالية :

واضح جداً بحسب نصوص الوحي أن الله أرسل إبنه – في صورة عبد – ووصفه – بالعبد الكامل « في القول : «جابلي من البطن عبداً له » (أش ٤٩ :٥) ولكنه لما جاء إلى الكرم مرسلاً من أبيه فان الكرامين ابغضوه وقتلوه . . . وصار بذلك العبد المتألم المرفوض والمهان (ع ٧) ومع ذلك فإنه هو بعينه الذي سينظره ملوك فيقومون ورؤساء فيسجدون ، بل سيسد ملوك أفواههم إذ تعتريهم الدهشة من مجده العتيد كما سبق أن اندهشوا منه في اتضاعه إذ صدتهم رؤيته على غير ما كانوا ينتظرون!!

في هذا الضوء نستطيع أن نفسر العبارة المتواترة عنه التي تقول :« لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله» ، فهي ليست دليلاً ضد الوهيته بل على العكس تحقق اثباتها ، لأنه لو كان مجرد انسان فحسب – أي كسائر البشر العبيد ، فكيف يقال

عنه بأنه :« لا يستنكف » ، وهذا أمر طبيعى بالنسبة للبشر عموماً ، فانهم لا يستنكفون أن يكونوا عبيداً – لانهم هكذا هم – ولقد وردت هذه الحقيقة فى سفر أيوب ٣٠ :١ « وأما الآن فقد ضحك علىّ أصاغرى أياماً الذين كنت استنكف من أن اجعل آباءهم مع كلاب غنمى » مما نرى فيه مدلول لفظة « يستنكف » وهو قبول التنازل ، الأمر الذى لا نجد له أثراً بالنسبة للسيد المسيح أى أن تنازله ليظهر فى صورة عبد لم يكن ليقلل من شأنه ورفعته السامية كإله . . . وقد أدرك يعقوب السروجى هذا المعنى فخاطب به المسيح بالقول :« أيها العالى الذى طأطأت ارتفاع عظمتك إلى هبوطنا ، ولم تستنكف نتانة جراحاتنا »!!

ومن ثم فإن التنازل الذى قبله لأجلنا لا يجب أن يؤخذ عليه كسبب للاحتقار لأنه أشبه بملك عظيم يزور رعيته متنكراً فى شكل حقير لكى يقابلهم ويفتقدهم ، وهكذا يفعل كل عظيم ورئيس متمثلاً فى ذلك بتنازل المسيح العجيب ، وهذا جانب من الحضارة الباقية إلى وقتنا الحاضر وذلك من آثار ظهور الرب بين الناس فى شكل عبد !! فهو لم يتأفف من حالتنا ولا استنكف من مذلة وضعنا ، لكنه طأطأ عظمته واقترب منا ليخلصنا . . .

والاستنكاف هنا إنما هو التخلى عن المقام دون التنازل عنه وهذا هو ما تعلمه الجميع من المسيح ، الذى – وهورب – تنكر فى صورة عبد لكى يفتقد البشر العبيد وينقذهم من العبودية وبئس المصير دون أن يتخلى عن مقامه الرفيع أو يؤثر ذلك عليه بتاتا!!

****

*** الزعم بتعارض الإرسالية مع الالوهية :**

يعترضون على لاهوت المسيح لكونه مُرسَل من الآب ، ظناً منهم أن ذلك يعنى أنه دون الآب ، وقد فاتهم أن الارسالية لا تنفى البنوية ولا تغير نسبتها بل تضيف إليها نسبة جديدة هى أن الابن قد أصبح رسول ابيه . . . وكذلك الحال بالنسبة لإرسالية الروح القدس من الابن فان هذه وتلك لا تعنيان وجود درجات تفرق بين الآب والابن ، ولا بين الروح القدس والإبن ، فلا هى تؤثر على النسب الكائنة بين الأقانيم ولا على الخصائص المنسوبة لكل أقنوم منها – وذلك لأن الوجود الإلهى

بطبيعته وجود غير متغير ، وعدم التغير إنما هى صفة جوهرية مطلقة تطبق على كل كمالاته تعالى ، فهو كمال مطلق لا يقبل أى تغيير لا نحو الأفضل ولا الأقل . . .وقد سبق أن وصفنا السيد المسيح بالعبد الكامل - بسبب هذه الإرسالية - ولما كان الكمال لله وحده فكيف ظهر هذا العبد كاملاً بين البشر الناقصين ، لولا ان ارساليته لم يكن لها ادنى تأثير على الوهيته . . .

فان هذه الارسالية شبيهة بارسال أحد الملوك ابنه الوحيد إلى جهة ما لأجل تأدية مأمورية خاصة - فان هذه الارسالية لا تغير نسبة البنوية التى بينه وبين ابيه وإنما يقال فقط انها قد اضافت إليها نسبة جديدة لم تكن له من قبل وهى نسبة رسول لأبيه دون أن تبطل النسبة الأولى . . .

هكذا إرسالية الإبن لم تنزع عنه نسبة البنوة ولا أزالت عنه كمالاً من الكمالات الإلهية المتصف بها ، فهو لازال إبن الله بعينه من بعد الإرسالية كما من قبلها ، وقد شهد له الآب بانه ابنه عند معموديته فى الأردن وفوق جبل التجلى - وهو أيضاً شهد عن نفسه أنه إبن الله مع إعلانه فى نفس الوقت أنه رسول أبيه ، مؤكدا بذلك عدم وجود أى تعارض بين النسبتين الخاصتين به أى الارسالية والبنوية!!

* * * *

نعم إنه بارساليته من الآب دعى رسولا - بل أعظم رسول على وجه الاطلاق - وبأخذه صورة عبد دعى عبداً ، وبالنظر إلى ذلك صار دون الآب وقال :« لأن أبى أعظم منى » (يو ١٤ :٢٨) **وهذا القول** يتمسك به الهراطقة القدامى والمعاصرين معتبرين اياه تنقيص للابن عن الآب . . . مع أن هذا القول لا غرابة فيه ، **لأن الآب لم يتجسد ، أما الابن فبتجسده وقبوله الألم وضع قليلاً - أى لفترة من الزمن لا فى الدرجة - عن الملائكة** (عب٢ :٩) **ولكن مع هذا فالابن الذى تجسد لم يزل معادلاً للآب بلاهوته بعد التجسد كما كان من قبله** - وهذا ما أدركه معاصريه ووصفوه بقولهم : « قال أن الله ابوه معادلاً نفسه بالله «يو٥ :١٨ » ، ومعنى ذلك أن طبيعته الإلهية هى قبل الإرسالية وبعدها ، ولهذا فقد أمرت الملائكة بان تسجد له بعد تجسده كما كانت تفعل قبل هذا التجسد إذ قيل عنه : «عند ادخال البكر إلى العالم يقول ولتسجد له كل ملائكة الله» (عب١ :٦) وسيتم ذلك لتحيته عند

استعلانه كالملك فى العالم المنظور بعد أن تجلى هكذا فى العالم غير المنظور – وسيظهر ذلك بوجه خاص فى مجيئه الثانى لأنه حينئذ ستراه كل عين وستجثو له كل ركبة لسائر المخلوقات!!

****

* **تفسيرات ملتوية لآيات عسرة الفهم :**

الأولى : من هذه الآيات هى قول السيد المسيح الوارد فى متى ١٩ :١٧ ونصه : « لماذا تدعونى صالحاً . ليس أحد صالحا إلا واحد وهوالله». . ينفون به لاهوته وأنه مجرد واحد من البشر الذين ليس فيهم واحدا يعمل صلاحا ، ولكنه يؤدى إلى عكس المعنى الظاهرى الذى يتمسكون به اذ هو لا يُعتبر نفى المسيح الصلاح عن نفسه – كما يزعم المناقضون – بل نفى وجود الصلاح فى البشر نفياً مطلقاً لأن الصلاح لا يوجد إلا فى الله وحده – ويسوع هنا لم يقبل الاطراء أو أن يخاطب كأحد الربانيين أى كمجرد معلم بل قصد أن يُرى المتكلم الذى خاطبه بالمعلم الصالح عدم الاتفاق بين كلامه واعتقاده وذلك بأن لقّبه بما هو مختص بالله وحده وهو يعتقد أنه مجرد انسان – فقصد – أن يقول لذلك الشاب الذى خاطبه هكذا بأن اعترافه له بالصلاح يوجب عليه أن يعترف ضمنا بأنه « الإله » وإلا فان تلقيبه له بالمعلم الصالح يكون عبثاً ، إذ لا صلاح فى البشر على الإطلاق وإنما هو فى الله وحده!!

الثانية : من هذه الآيات هى قوله : « وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ولا الملائكة الذين فى السماء ولا الإبن . إلا الآب (مر ١٣ :٣٢) ويفسر بعضهم ذلك بأن الابن وان كان يعلم كل شىء لكونه الابن الأزلى لكنه لا يعرف هنا باعتباره العبد أو الخادم . . واستطرد بعضهم إلى القول بانه لا يعلم كانسان وأما كإله فهو يعرف كل شىء : ولكن هذا التفسير يجعل للمسيح شخصيتين منفصلتين . . ولكن العلم هنا وشبيه به اعرف الواردة فى (١ كو ٢ :٢) واصلها «اعرّف» ، وعلى منوالها يكون يعلم هنا هى « يُعلم » والمقصود بذلك « العلم الذى لا يسوغ إعلانه » ، وذلك لأن الآب هو مصدر الإعلان باعتبار أنه هو الذات أو الجوهر وقد نسب إليه ما وصل لبطرس عن المسيح (مت١٦ :١٧) وقيل بشأنه :« أنه قد جعل الأزمنة والاوقات فى سلطانه » (أع ١ :٧) وأيضاً ما ورد فى رؤيا ١ :١ » إعلان يسوع المسيح الذى اعطاه اياه الله «وكذلك الجلوس على يمينه ويساره فمصدره الآب»

(متى ٢٠ :٢٣) ومعنى ذلك الاختصاص الأقنومى وليس التفرد بالعلم فى الآب دون باقى الأقانيم ، إذ أن المسيح بهذه المثابة كان يعلمها فى ذاته بوحدة الجوهر من ناحية ، ولاتحاده الذاتى بالناسوت من الناحية الأخرى .

****

الثالثة : قوله فى يوحنا ١٧ :٣ «وهذه هى الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإلـــه الحقيقى وحـــدك ويسوع المسيح الذى أرسلته» وهو خطاب موجه إلى الآب من يسوع المسيح كابن الإنسان ، وقد حاول المضلون بشتى الطرق تحريف معناه بالإدعاء بأنه يعتبر المسيح مجرد انسان فقط ، مع أنه مرسل من الآب باعتباره الابن الأزلى!!

وأما القصد من قوله هنا بالآب : « أنت الإله الحقيقى وحدك » فهو إعلان تفرد الآب بالألوهية من جهة كونه يعتبر « الذات » أى الكيان المطلق الذى يتمثل فيه جوهر اللاهوت – وهو إعلان حاسم ضد تعدد الآلهة . . . ولكن أليس الناطق به هنا هو يسوع المسيح بعينه الذى خاطب نفس الآب بعد ذلك فى نفس الموضوع بالقول : « وكل ما هو لك فهو لى » : (ع ١٠) مما يقطع بالمساواة بينهما فى الجوهر الذى هما معاً ومع الروح القدس . . . واحداً فيه

وقوله هذا يثبت أيضاً أن نوال الحياة الأبدية متوقف على معرفة هذا الابن المُرسَل ، كما على معرفة الآب بالتساوى ، وأنه بمعرفة كليهما يكون نوال الحياة الأبدية . ولهذا رد اغسطنيوس على استنتاج الأريوسيين الباطل أن الآب وحده هو الإله الحقيقى بحصر اللفظ بقوله : « أن حرف العطف فى هذه الآية (الواو) يجمع بين الآب والمسيح على صعيد واحد هو صعيد اللاهوت ، ولا شك أن المعنى لا يستقيم إلا إذا فهمناه على هذا النحو، يؤكد ذلك ما يذكره الوحى عن يسوع المسيح بأن : « هذا هو الإله الحق والحياة الأبدية » (١يو٥ :٢٠)

****

الرابعة : قول الوحى فى كورنثوس الاولى ٨ :٦ ونصه : « لنا إله واحد الآب الذى منه جميع الأشياء ورب واحد يسوع المسيح الذى به جميع الأشياء » وتفسير المضلون هنا هو أن الرب يسوع المسيح فى رتبة أقل من الآب وهو باطل ، فإن الرسول لا يناقش هنا موضوع اللاهوت وأنه ثلاثة أقانيم وإلا لكان ذكر الروح القدس حتماً ، وإنما هو يواجه آلهة وأرباب الوثنية

العديدين مبيناً أننا نعبد إلهاً واحداً « الآب » ونخضع لسيد واحد «يسوع المسيح» – وقد تضمن قانون الإيمان الإقرار بهذين الأمرين!!

فإيماننا بإله واحد إنما هو فى مواجهة آلهة الوثنية العديدين كما أن إيماننا برب واحد إنما هو فى مواجهة أربابها الكثيرين (ومنهم الاباطره والحكام) فهنا إعلان عن الوحدانية مقابل الصنمية التعددية ، ومن المعلوم أن الجوهر والذات ينسبان للآب وهو بذلك المصدر – وكل الخلائق صدرت منه – ولكن ذلك تم بالابن وتنفذ بالروح القدس . وقد وردت ربوبية الابن ٤٠٠ مرة فى العهد الجديد ، وواضح أن لفظة « رب » تتساوى مع « يهوه » الإسم الأعظم لذات الله!!

ومن ثم فإن صدور جميع الاشياء من الآب أمر لا غرابة فيه فى حد ذاته باعتباره أصل الوجود الذى خلق سائر المخلوقات وهى بارادته كائنة ووجدت دون أن يتناقض ذلك مع قيامه بالخلق بإبنه وروحه أما محاولتهم افتراض وجود فرق بين حرف الجر « به » وأنه مخالف للحرف « منه » السابق وروده عن الآب بإعتبار أن حرف « منه » يمثل المصدر وأما به فيمثل « الواسطة » ففى ما ورد فى رومية ١١ :٣٦ « لأن منه وبه وله كل الاشياء . . . » فهذا القول قد ورد عن الآب ويتضمن حرف « به » المقول عن الابن مما ينفى أية تفرقة مزعومة بين الآب والابن بسبب حرفى الجر « منه » و« به » فقد استخدم لكليهما على حد سواء !!

وفضلا عن ذلك فإن ما اختلقوه للتفرقة بين الالوهية والربوبية إنما هو زعم باطل إذ هو أمر مستحيل فى حد ذاته ، لأنهما وصفان مترادفان لذات الله ويحملان نفس المعنى فى التعبد والخضوع ، مما سيتم حدوثه فى نهاية الزمن حين تؤمر كل الخليقة أن تسجد للإبن « الملك الإلهى » وذلك لمجد الله الآب نفسه وسيكون ذلك حينئذ بمثابة إعتراف علنى لمساواة الإبن للآب فى الجوهر ووحدتهما فيه!!

هذا هو المنطق الذى أصر أثناسيوس على تضمينه قانون الإيمان وكان ضمن ما استند عليه فى ذلك قول السيد المسيح نفسه فى «يوحنا ١٠ :٣٠» «أنا والآب واحد» ، ولم يقل « الآب وأنا واحد » معلناً المساواة المطلقة بينهما إذ لو كان يسوع المسيح أقل من الآب لاعتبر تجديفا منه أن يتقدم إسمه إسم الآب : وقد إعتبره اليهود هكذا وأرادوا رجمه كما يفعل شهود يهوه بكتبهم الكفرية التى يزعمون فيها

أن الوحدة المقصودة هنا بين الآب والإبن هى وحدة فى القصد والفكر والعمل – وليس فى الذاتية – شبيهة بوحدة المسيحيين فى الآب والابن – وعلى نهجهم صار البعض مدعين بأن هذه العبارة محمولة على المجاز بمعنى التوافق التام مع الله . . .

وهذا مردود لأن المسيح تفرد فى هذا القول عن سائر الخلق ، فلم يظهر بجانبه آخر يشاركه فيه إذ هو يشف عن وحدة الجوهر الإلهى والادعاء هنا بتوسيع نطاق هذه الوحدة لادخال المسيحيين فيها ولو من باب المشابهة إنما هو أمر باطل ، إذ أن وحدة المسيحيين هذه حادثة فى الزمان ومكتسبة بفعل الإيمان ، وهى وحدة أدبية نسبية تقوم على أساس من الروحانية الباطنية – وهذه لا ولن تكون شركة فى الجوهر الإلهى ، أما وحدة الآب والابن فهى وحدة أصلية سرمدية ليس لها بدء ولا تقف عند حد ولم يحصل عليها المسيح بأى واسطة بل هى وحدة فى الجوهر بطبيعته ، وهذه الوحدة لم يحدث فيها تغير ما بسبب الاتحاد بالناسوت إذ هو اتحاد ذاتى فائق!!

ومن ثم فإن وحدة الإبن مع الآب لا شركة للمؤمنين فيها ولذلك علّم المسيح تلاميذه أن يقولوا فى صلواتهم « أبانا » لانهم أخوة مع سائر المؤمنين للآب الواحد ، لكنه لما صلى هو قال : « أيها الآب » غير حاسب له شريك فى هذه النسبة القدسية الفريدة – وذلك لأنه هو الابن الوحيد بمعنى سام يمتاز عن بنوة المؤمنين للآب . . .! ! ونفس التمييز نجده فى قوله : « إلهى وإلهكم » فهو إله باعتبار أنه أعلنه للعالم وقدّمه بكيفية لم يقدمه غيره ، وإلهكم بحسب ما صار لنا من نسبة بين الله وبيننا ، لأنه لو ساوى بينه وبيننا بالنسبة لله لقال « إلهنا » .

****

الخامسة : فى القول الوارد فى كورنثوس الأولى ١١ :٣ عن أن : « رأس المسيح هو الله،وقد ورد معه أن رأس الرجل هو المسيح ورأس المرأة هو الرجل» . . وكلمة « رأس » فى كل هذه الحالات تعنى « القيادة » ويقابلها « قبول الخضوع » باعتبار أن ذلك نظام وضعة الله، وبالنسبة للمسيح فانه عندما تجسد وأخلى نفسه آخذا صورة عبد ، فانه فى هذا الوضع كان خاضعاً لله،لكنه خضوع إرادى أتم به الفداء ، كما ترك لنا مثالاً نتشبه به فى ذلك ، ولكن لا دخل لهذا الخضوع بالنسبة لجوهر لاهوته ومجده الشخصى :

سادساً: واخيراً فقد ظن المعترضون على لاهوت المسيح بأنهم قد وجدوا ضالتهم المنشودة فى عبارة : « ومتى أخضع له الكل فحينئذ الابن نفسه سيخضع للذى أخضع له الكل لكى يكون الله الكل فى الكل » (١ كو ١٥ :٢٨) ويظن شهود يهوه بأن هذا الخضوع يطعن فى لاهوت الابن فى حين أنه لا يزيد فى معناه عن تسليمه الملك « الألفى » الذى استلمه من أبيه أما تأثير ذلك على الابن الأزلى بما يسمونه النظام التوسطى فهذا يتعارض مع مساواة الأقانيم فى السرمد والقدرة والمجد ، والحقيقة الماثلة من ثنايا مدونات الوحى هى أن هذا الذى هو على عرش أبيه الآن – وهو

عرش النعمة – سيجلس على عرشه هو– وهو عرش الملكوت الألفى – ومن بعد سيجلس على العرش الأبيض العظيم – وأخيراً على عرش الملكوت الأبدى . . دون ان يكون معنى ذلك ضياع التمييز الأقنومى أو المساس بسر التجسد الذى بموجبه سنراه ونكون مثله .

وقد استطعنا أن نرى من وراء هذا كله حقيقة معنى ارسالية الابن من الآب وبدا من ذلك واضحاً أنه هو الأعظم لأنه أعظم رسول!!

* * * *

الفصل التاسع

هو الأعظم لأنه الفادى الشفيع

« بعد ما صنع بنفسه تطهيراً لخطايانا جلس فى يمين العظمة صائراً أعظم من الملائكة » (عب ١ :٣، ٤)

« لأن المسيح لم يدخل إلى أقداس مصنوعة بيد اشباه الحقيقية بل إلى السماء عينها ليظهر الآن أمام وجه الله لأجلنا»

(عب ٩ :٢٤)

* * * *

*** الحاجة إلى الفداء :**

هذه الحاجة تظهر فى الاحساس الباطنى فى اعماق كل نفس كظل لحقيقة الحال التى وجد فيها الانسان الساقط نفسه بازاء الله وهى تدل بالضرورة عن أسباب تستند اليها وهى :-

١- حنين القلب البشرى لقرب الله ورؤيته وضرورة الحصول على القلب الطاهر لأجل إتمام هذا الغرض :هذا يكشف عن حتمية وجود « فادى » لأن الانسان فى حالته الساقطة لا يمكنه الوقوف أمام الله ولا المثول لديه لأن رعب الله يبغته ما لم يتحرر من الخطية وذلك يستلزم وجود « الفادى » ليكفر عنها ويطهره منها ... وقد عبر ايوب عن ذلك بقوله :« من يعطينى أن أجده فآتى إلى كرسيه » إلى أن جاء ذكر الوسيط المرسل الذى سيقوم بالفداء !!

٢- استحالة الإقتراب إلى الله عن طريق « الكمال البشرى » وهو طريق قايين :حيث أن الايفاء عن الخطية من هذا القبيل مستحيل لأن ذلك لن يكون بغير « ضحية » تموت بدلاً من الخاطىء الذى لن يصل بذاته إلى « كمال » يجعله مقبولاً لدى الله . وهذا يبين بالضرورة أن الطريق إلى الله يتحتم أن يكون عن طريق « الفدية » وهى التى قدمها يسوع المسيح « الفادى » !!

٣- إن هذا الفداء هو الجواب الإلهى لما تحس به المخلوقات البشرية وتبحث عنه للتخلص من سقوطها: وذلك على

أساس من العدل المطلق إذ أنه مادامت هذه المخلوقات قد سقطت بعلة خارجية – هى غواية ابليس – فكان من باب العدل أن تقوم بعلة خارجية أيضاً – وهى تجسد ابن الله وموته على الصليب نيابة عن البشر الخطاة !!

٤– ضرورة وجود الفداء للتوفيق بين عدل الله ورحمته لكونه تعالى مرتبط بكليهما :فلكى يجمع بين عدله ورحمته دبّر طريقة لفداء الانسان بها أخذ العدل حقه فنال البشر العفو والغفران إذ قد أوفى المسيح بذبيحته مطلبى العدل والرحمة وذلك بكفارته التى قدمها عن الجميع ، وإلا لحدث تعارض بينهما – إذ أن الله تعالى لو حكم بالعدل على البشر بالهلاك أين تكون الرحمة ؟ ولو فتحت الرحمة أمام البشر الخطاة ابواب النعيم – بدون إيفاء العدل الإلهى حقه– أين يكون العدل عندئذ!؟ **ولكن فى المسيح الفادى «الرحمة والحق (العدل) التقيا» (مز٨٥ :١٠) وثبت بذلك انه الوسيط الوحيد الذى بذل نفسه فدية لأجل الجميع (١ تى ٢ :٥)**

****

ولا شك أن عمل الفداء الكفارى هو أعظم حدث فى تاريخ البشرية وهو أيضاً أسمى إمتياز إذ أن البشر فى أشد الحاجة إلى هذا الفداء ولذلك فهو لا يقبل أن يتبدل أو يترك مجالاً لإستنباطات العقل البشرى الذى بعناد واصرار يعلن الرفض ويفضل على الفداء طريق قايين « الاستحقاق البشرى » فى حين أن الوحى يعلن بأن الله إنما يميز اتقياءه القاطعين عهده على ذبيحة الفداء فيأمر بجمعهم أولاً قبل ان يجرى الدينونة (مز٥٠) ،ويسبق ذلك قوله فى (مز ٤٩) « كريمة هى فدية نفوسهم .. فإن الأخ لن يفدى اخاه .. إنما الله يفدى نفسى من يد الهاوية لأنه يأخذنى » !! وهذا لم يتم إلا عن طريق الكفارة التى بدونها لن يكون هناك أساس يتبرر به الانسان المذنب ، وبه يكون الله نفسه باراً فى تبريره !!

****

*** الشروط الواجب توافرها فى الفادى :**

لقد وجدنا فى كلمة الله ليس فقط الحاجة إلى الفداء ، بل أن هناك شروطاً واجب توافرها فيمن يقوم به ، ونحن إذ نسردها فإننا سنرى أنها لن تتحقق إلا فى يسوع المسيح وهى :–

الشرط الأول :أن يكون هذا الفادى شخصية فريدة النوع لأن الفداء الذى

سيتمه يتطلب أن يكون فيه لاهوتاً يصله بالله ،وناسوتاً يصله بالبشر: فيكون بذلك حسب أمنية أيوب« المصالح الذى يضع يده على كلينا » ، مما يستلزم أن يكون مساوياً لله من جهة ومساوياً للانسان من الجهة الأخرى حتى يكون حلقة إتصال توجد بين الله البار والانسان الخاطىء ومعنى ذلك أن يكون كائنا واحدا يكون إلهاً وإنساناً فى آن واحد !!

ان مثل هذا الكائن لا يمكن أن يكون ملاكاً – لأنه مجرد مخلوق ادنى من الله رتبة كما أنه ليس متحد مع الانسان فى طبيعته لا قبل السقوط ولا بعده ... كما لا يمكن أن يكون هذا الوسيط المصالح مجرد انسان فقط – لأنه حتى ولو كان باراً فانه لا يمكن أن يسمو فى مقامه عن كونه مجرد عبد ، والعبد لن يسمو حتى يساوى سيده ، فما بالك وجميع الجنس البشرى بدون استثناء مولودين بالخطية وخاضعين للموت !! هذا فضلاً عن أن الانسان بالنظر إلى محدوديته لا يمكنه عجزاً منه أن يكون وسيطاً عاماً لجميع البشر إذ ليس فى امكانه الوجود فى كل مكان فى آن واحد والقدرة على فحص قلوب الناس الراغبين فى المصالحة لمعرفة ما فيها من رغبة حقيقية أو كاذبة ..وهذه كلها لا يمكن أن تتوفر إلا فيمن يكون إلهاً ...كما أننا يجب أن نضع فى الإعتبار أن هذا المصالح سيكون فادياً ليس لإنسان واحد بل لكل الناس أى بلايين البشر الذى يعيشون فى العالم فى كل العصور والبلدان ، ومن ثم يجب أن تكون قيمته معادلة لكل هؤلاء الناس !! ومع عظمته التى ذكرناها يجب أن يكون واحداً من جنس البشر حتى يستطيع أن يكون نائباً عنهم ... ازاء ذلك كله لم يوجد غير يسوع المسيح–الإله المتأنس – الشخص الوحيد الذى تم فيه الاتحاد الذاتى السرى الفائق للإدراك بين اللاهوت والناسوت ، والمعلن لكل من يقبله بالإيمان ...

لأنه ما دام الانسان هو الذى أخطأ فهو الذى يرد ، ومادام هو الله الذى أهينت كرامته فان المطلوب رده أكبر مما تستطيع قوة الانسان أن تدفعه – إنما واحد فقط استطاع أن يفى كابن الانسان ، وبحسب ما له من كفاية كابن الله ، فان الحياة التى بذلها كانت عظيمة وثمينة لدرجة تكفى معها فى دفع ما هو مطلوب إيفائه عن خطايا كل العالم .. وأما الذين يتغاضون عن هذه الحقيقة فانهم بذلك لا يقدّرون كفارته التى بها وفىّ ما على البشر من دين غير محدود

لكونه إلها غير محدود ، لأننا قد أخطأنا ضد الله غير المحدود ، وحق علينا عذاب ابدى غير محدود ، وأما يسوع فبحكم لاهوته بغير المحدود قد وفىّ دين البشرية كله فى ساعات قليلة قضاها فوق الصليب جعلت لالآمه الكفارية قيمة غير محدودة تساوى ما كنا سنكابده نحن البشر المحدودين من عقاب غير محدود !!

الشرط الثانى : أنه يجب أن يكون الوسيط حراً أى مالكا لنفسه لا لسواه ، فاذا ما كان مخلوقا لكان بجملته ملكاً لله لا لنفسه ، مما لا يحق له تقديم نفسه فدية لله عن أحد ، ومن ثم وجب أن يكون الفادى شخصاً غير مخلوق لكى يكون من حقه أن يقدم نفسه كفارة :

وحين نبحث أين نجد شخصاً يملك نفسه فاننا لا نجد أحداً من الملائكة أو البشر على الاطلاق هكذا ، لأنهم خلائق مصنوعة والمصنوع ملك لصانعه – فلا يوجد بين المخلوقات أحد قط ملك لنفسه – أما يسوع وحده فهو ملك نفسه باعتبار أقنومه الخاص الذى له فى اللاهوت ، ومن ثم فان له حرية التصرف بشكل واقعى ، وهذا هو أساس الفداء ...

ولذلك جاء تعبير الله عن هذه المشكلة بلسان نبيه أشعياء فى القول عنه أنه : « تحير أنه ليس شفيع » (٥٩ :١٦) الله سبحانه يتحير !؟ نعم فان أمر الشفاعة كان معضلة إذ هو يستلزم أن يكون القائم بها معادلا لله وكذلك مساويا للإنسان – فلم يكن بد أن الذى يقوم بها تجتمع فيه العظمة بلاحد ويكون فى نفس الوقت شريك البشر والنائب الذى يمثلهم بحق ويكون مع ذلك ملك لنفسه حر التصرف فى تقديمها بملء إختياره ، مما نتبين منه أن قضية الوساطة للفداء أعمق جداً مما يتصوره البعض بما يخوضون فيه بغير علم فضلاً عن أنها ترتبط بخلاص البشر الهالكين ومن هنا لا يسعنا إلا التعجب ممن يتجاهلون يسوع الفادى الشفيع ، ولسنا ندرى إلى من يذهبون أما الذين اكتحلت عيونهم بنور الوحى فإنها لن تتحول عنه إلى هذا ولا إلى ذاك إذ لا بديل له لأن هذا محال !!

الشرط الثالث : أنه يجب على هذا الفادى أن يكون راغباً فى تقديم نفسه فدية عن الجميع ، فيضع نفسه عنهم تلقائياً بلا ضغط أو إجبار عليه : هذا الفادى شفيع البشرية الذى قدم كفارة عن العالم أجمع يخاطب بالقول : « لا ملاك ولا رئيس ملائكة ولا رئيس آباء ولا نبياً ائتمنته على خلاصنا ، بل أنت بغير استحالة تجسدت وتأنست ... »

هذا الذى نزل من السماء ويكامل حريته صار إنساناً دون أن يؤثر ذلك عليه بوصفه إلها أعلن بانه « ليس أحد يأخذ نفسه منه بل هو يضعها من ذاته » جاء ليكون وسيط الصلح يفكنا من الأسر ويفدينا من الجحيم ويؤهلنا لدخول النعيم .. !! فمن يا ترى يقوم مقامه – وكيف يمكن تجاهل محبته وتنازله هذا لإتمام الخلاص – ومن سواه يمكن الإتكال عليه بالنسبة للمصير الأبدى – فلماذا التيه عنه والضلال بعد ... !؟

الشرط الرابع : يجب أن يكون هذا الفادى غير مديون قط بل وغنى بلا حد حتى يستطيع أن يفى ما على البشرية من ديون : والواقع أن يسوع المسيح هذا الوسيط الفادى قد وفىّ كل الديون وأكد لنا ذلك بقوله : « قد أكمل » قد وفىّ كل ما على البشرية من حقوق للعدل الإلهى ، قام بايفائها تماماً ايفاءاً كاملاً غير منقوص ... وبذلك برأ ساحتنا ودعانا لمحفل ابدى يكون لنا فيه الفرح كاملاً وأبدياً ...

وأما الذين يريدون خفض قيمة الفداء أو الادعاء بان المسيح الذى صنع الفداء ليس هو الله فنجابهه بآيات الكتاب المقدس التى تقول :

« ترشد برأفتك الشعب الذى فديته » (خر١٥ : ١٣) « فدى نفسى من العبور إلى الحفرة » (اى ٣٣ :٢٨) ، «الرب فادى نفوس عبيده» (مز ٣٤ :٢٢) ، بل قد جاء فى (مز ٦٥ :٣) القول : «معاصينا أنت تكفر عنها» ، وفى سفر اشعياء : «إله بار ومخلص» (٤٥ : ٢١) و « التفتوا إلىّ واخلصوا ... لأنى أنا الله وليس آخر » (٤٥ : ٢٢) و « فادينا رب الجنود اسمه » (٤٧ : ٤) ولذلك جاء فى انشودة زكريا : «مبارك الرب لانه افتقد وصنع فداء لشعبه» (لو ١ : ٦٨)

*** الفادى يقوم باخطر مهمة وهى الفداء ويشمل الكفارة التى هى أساس المغفرة والتطهير وهما أساس القبول :**

ويتضح مما نتأمله هنا الحقائق الآتية :-

١- لا يخفى أن تطهير خطايانا عمل إلهى بحت كسائر الأعمال الأخرى المنسوبة للابن وهو أمر أكيد وكامل يمجد الله تماما :

ولا يخفى أن هذا العمل يعد أعسر جدا من خلق العالمين ، لأنه يسهل على الله جداً أن يبدع عالماً بل عوالماً من لا شىء ، ولكنه بالنظر لقداسته الفائقة لا يستطيع النظر إلى الخطية ، لهذا شرع

أن ينزعها بنفسه – فقد أخطأنا ضد الله ليس ضد الانسان لهذا لا يقدر الانسان أن يغفر إثمنا بل الله وحده !!

٢– لهذا نرى الابن قد صنع التطهير بنفسه لعجز ما عداه على فعله لأن الله لا يستطيع احتمال الخطية ولا السماح بها :

وهذه علة تطهيرنا إذ لا سبيل آخر إلا أن ينزعها بنفسه فالملائكة مع أنها أرسلت لخدمته حين كان مشتغلاً بعمل التطهير إلا أنها لا تقدر أن تفعل ذلك – إذ هو عمل قام به الابن الحبيب وحده عندما جاء وخلصنا !!

٣– كان لابد أن شاء الله أن يغفر لنا أن يطهرنا أولاً وهذه هى الضرورة الخطيرة التى أوجبت أن الله يهتم بحالتنا :

غير أن له محبة كافية وقدرة عجيبة لتطهيرنا ، فلو أنه غض النظر عن تطهيرنا لابطل قداسته ، ومن ثم إذا شاء الاتيان بنا نحن الأئمة إلى محضره قضت قداسته بتطهيرنا وغسلنا أولاً .. يؤيد ذلك القول المتواتر بأن : « لا ملجأ من الله إلا إليه » وذلك إنما بالهروب من عدله إلى رحمته « وبذلك يكون مثل هذا الدعاء مقبولاً وهو : « أعوذ بمعافاتك من غضبك وبرحمتك من بطشك، وأعوذ بك منك» !!

٤– لقد استحق يسوع المسيح كابن الانسان أن يجلس فى عرش أبيه كمن قد صنع الفداء : فهو كمن قد صنع الفداء لم يكن يقارن هنا مع الملائكة بحسب طبيعته الإلهية ، الامر الذى أوجب الإعلان عنه بأنه افضل من الملائكة – لأنه صار– بالفداء – أعظم منهم ، إذ اصبح يفضلهم حتى أنه ورث اسما افضل مما لهم هواسم « الفادى » !!

٥– ثم نلاحظ أن عمل التطهير قد صنع وتم ليس بأمر سيصنعه فيما بعد أو ربما يصنعه أو قد يعلنه فى المستقبل :

بل هو أمر صُنع وجلس صانعه فى يمين عرش العظمة ، وليس لنا فيما بعد من يأتى ليخبرنا بأنه سيصنعه بل لنا شهادة الروح القدس بأنه تم والمغفرة مقدمة الآن دون حاجة إلى تكرار الذبيحة (عب ١٠)

هذا هو جوهر الكفارة ، وما علينا نحن سوى القبول ببساطة لإعلان الله الذى قدم لنا هذا الحق الكتابى المعلن فيه إبطال خطايانا فى المسكونة كلها أمام جميع الخلائق وإلى الأبد !! وذلك لأن جميع خطاياى قد وضعها الله على رأس

بديلى ، وهكذا تقابلت صفاته بحالة متساوية ، وجلس هذا الفادى فى العرش إعلاناً عن ذلك !! إذ هو أعظم من الملائكة بما لا يقاس لأن عمله فى الفداء إنما قام على أساس اتحاد طبيعته الإلهية بطبيعة أخرى بشرية كما سبق البيان – وهو لم يطهرنا من نجاسات خارجية – كما فى القديم – بل هو تطهير القلب والضمير من أعمال ميتة ... لقد قام بالخلق فى الماضى ، وهو يقوم بالعناية فى الحاضر – ولكن نقطة ارتكاز العملين هو عمل الفداء – وهذا ما اقتضته حكمة الله – وهى حكمة غير محدودة ومتنوعة ، أدخلت فى الاعتبار كل جوانب القضية !!

فماذا عسى أن يقول الشيطان ووكلاءه فى مواجهة هذا كله لاشك أنهم لن يؤثروا على مكانة هذا الفادى ولا على عمله بل سيظهر فشل خططهم إلى الأبد ، أما هو فقد جلس منتظراً النتائج النهائية لذبيحته !!

****

*** وهو يقوم أيضاً بمهمة الشفاعة – وهى تاج الفداء وضامنه إذ أنه دخل إلى السماء عينها ليظهر الآن أمام وجه الله لأجلنا وبمقدار تقديرنا لقيمة الفداء تكون نظرتنا لشفاعة المسيح إذ أن هذه أيضا من القضايا الجوهرية :**

وشفاعة المسيح هنا ليست مجرد تقديم طلبات وتوسلات بل الدفاع المقبول فى قضية عسرة – لأننا رغم الفداء الذى تم ، فاننا نحن بشر ، القصور لاصق بنا والاحتياج عنوان كياننا فضلا عما يتصل بهذا الكيان من ضعفات وزلات ... فبالرغم من الفداء الذى صنع لنا ، كيف يمكن أن نصل إلى السماء بحالتنا هذه ، هنا تنقص كل الوسائل الأخرى التى يحاول البعض فرضها لعلاج هذا الموقف ، بما فى ذلك التوبة نفسها لأنها وأن كانت تولد فينا الاحساس بما ذكرناه والرغبة فى التغيير لكنها غير كافية ولا قيمة لها بدون شفاعة المسيح – «فان هذه الشفاعة هى التى يحتاج اليها أولاد الله عندما يخطئون» (١ يو ٢ : ١)

لاشك أننا بالنعمة التى فى الفداء نلنا مقامنا كمسيحيين ، أما شفاعة المسيح – فهى ليست لتبريرنا لأننا تبررنا بالفداء – وإنما هى لردنا عندما نكون فى حالة ابتعاد عن الله وإلا لما كان لنا أمل فى الرجوع إليه ... وعلى هذا المنوال تأتينا نعمته للمعونة ، وهو يمارس ذلك فى السماء ، أما علة ذهابى إليه فهى لكونى تبررت

بيره الكامل ، ولهذا السبب نلت حق الذهاب إلى السماء ، إذ أنه أقامنا وأجلسنا معه فى السماويات – ومع أن حقنا بالسماء دائم ولا يتغير ، غير أن سلوكنا على الارض لا يطابق ذلك دائما ، فماذا يجب أن نفعل فى حال كهذه وكيف نوفق بين مقامنا وحالنا ؟ لا غرو أنى بحسب مقامى داخل الحجاب ولكنى لست فى حال تؤهلنى دائماً للدخول فيه :

هنا تأتى شفاعة هذا الكاهن العظيم « المسيح » للتوفيق بين هذا الخلاف أى بين مركزنا فى السماء وسلوكنا على الأرض ، فهو بيره الفدائى حقق لى الدخول إلى ذلك المكان ، وأما عمله الشفاعى فهو لكى يعيدنى إلى شركة المحل الذى فزت به ...

ولكن ذلك يتطلب منى الالتجاء إلى شفاعته حتى حين السقوط والفشل – وهذا لا يكون إلا فى حالة تذلل مستمر !! وهذا هو المقصود بالقول : « فمن ثم يقدر أن يخلص إلى التمام الذين يتقدمون به إلى الله إذ هو حى فى كل حين ليشفع فيهم » (عب ٧ :٢٥) ؛ فهو هنا يذهب إلى الله لأجلنا ونحن نتقدم به إليه تعالى .. فبحسب كونه رباً ومخلصاً نحن نذهب إليه ، ولكن بحسب كونه كاهناً وشفيعاً نتقدم به إلى الله لكونه حى وقائم فى حضرة الله يشفع فينا ويردنا حين السقوط ويخلصنا من كل وجه وذلك بسبب شفاعته المقبولة ذات الكفاية التامة !!

****

فاننا لا نستطيع الوجود فى حضرة الله بدون أن نكون قد تطهرنا أولاً وقد تم لنا ذلك بدم المسيح – وهذا لا يقارن بالوسائط التى يختارونها ويقبلون فرضها على أنفسهم مكررين اياها مرارا عديدة ، غير مقدّرين شفاعة المسيح بالنسبة لكل فرد يقترب إلى الله عن طريقها يوما بعد الآخر ... وهى تمنح المؤمنين الذين يفعلون ذلك الفوائد التى اشتراها لهم بدمه وتقوى حياتهم الروحية ، وتحول كل ما يتعلق بهم إلى خيرهم !!

فحين ينظر الله الدم لا يعاين الخطية بعد ، وضميرى يسترح على قيمته فى عينى الله ، على أن ، قلبى يصبو إلى تعظيم قيمته ! غير ان السؤال هو : كيف يمكنى الوقوف فى حضرة الله بلا لوم ؟ والجواب هو أن الله ينظر إلى ذلك الدم الذى قدم إليه وقد قبله ، ومن ثم فانه لا يستطيع أن ينظر إلى الخطية

لأنه لو فعل ذلك لما كان لذلك الدم قيمة عنده ، وحاشا لله أن يفعل ذلك وهو الذى أكرم الدم ... هذا هو الفداء الذى يصفه الوحى بأنه فداء أبدى ، وأن المسيح صنعه مرة واحدة ، وبعمل المسيح هذا تم اخراجى من حيث كنت والاتيان بى إلى محضر الله !! وأساس هذا العمل ذبيحة المسيح المقدمة مرة واحدة فى الجلجثة ولن تتكرر ، ولكن لاجل مساعدتنا على الاحتفاظ بمركز القبول والدخول إلى محضر الله ، **قد دخل ربنا المبارك إلى الأقداس بدمه وأصعدنا معه وهذا هو المعنى المقصود بالقول : « ليظهر أمام وجه الله لأجلنا »** ، لهذا قد وضح بأن المؤمنين هم دائماً أمام الآب كعباد مقبولين لأن يسوع المسيح هو هناك لأجلهم ، وهو هناك كرئيس الكهنة ، الذى ليست هناك حاجة لإضافة شىء على ذبيحته ولا على شفاعته ، ومن ثم فلا احتياج لنا إلى وسائط أو شفاعات أخرى بأنواعها !! ولو تصورنا وجودهم فليس عند أيهم ولا هم معاً الاقتدار الذى لشفيعنا المبارك ... وذلك لانعدام الكفاءة الشخصية لديهم وكذلك عجزهم عن تقديم الكفارة غير المحدودة – القيمة والتى هى أساس الشفاعة ...

* * * *

كل هذا يكشف عن حاجتنا إلى شفاعة المسيح لأنه بدونها كانت خطايانا كمؤمنين تمنعنا من الدخول إلى حضرة الله كل أيام حياتنا على الارض : ولذلك فان شفاعة المسيح لأجلنا هى شفاعة دائمة مستديمة ليس فيها توقف على الاطلاق – بل أنها تقف سداً منيعاً فى وجه كل شكوى توجه ضدنا – إذ هو هناك – داخل الحجاب – لكى يضمن مرساة نفوسنا ويستقبلنا فى الميناء الأمين !!

انه لم يكن على الصليب فقط لأجلى بل هو هناك واقف أمام وجه الله لأجلى ضامنا لقبولى ووصولى إلى هناك ، وذلك بسبب كفاءته الشخصية واستحقاقه الذاتى كابن الانسان – الذى يمثل الانسانية كلها فترى أين تذهب البشرية بدون هذا الشفيع وماذا كان بمقدورها أن تفعل ... أنه حجر الامتحان بين جميع الأسماء والشخصيات التى احتواها التاريخ ... فهو الذى فتح لنا الطريق إلى الأقداس – إلى حضرة الآب – وبه ندخل إلى هناك !! ليس هو شفيع من الشفعاء حتى ولو كان أعظمهم ، بل هو الشفيع الوحيد الذى لا ولن يوجد معه شركاء لافى الكفارة ولا فى الشفاعة حيث أن هذين الامرين بالذات هما مشكلة المشاكل

ولم يكن لهما حل سوى فى المسيح ، ولذلك يدفع الشيطان الكثيرين للتجديف عليه ليحرمهم من كفارته وشفاعته !!

أما نحن المؤمنين فقد أدركنا أن شفاعته إنما هى لضمان إستمرار الغفران على أساس الكفارة الكاملة الشاملة التى قدمها عنا فوق الصليب ... ومن ثم ظهور المسيح الآن أمام وجه الله لأجلنا باستحقاق كفارته إنما هو لتأييدنا وتثبيتنا فى مركزنا الذى أوصلنا إليه بمصالحته إيانا مصالحة أبدية – وهذا هو عمل شفاعته الدائم لابقاء المصالحين فى حالة المصالحة على الدوام !!

وشتان بين موقف كهذا وبين من يتجاهلون طريق التطهير والغفران هذا ويسرعون بقبول فرض اعمال تكفيرية على أنفسهم وفاءً للعدل الإلهى عن خطاياهم وهيهات !!

أما المؤمنين الذين اعتمدوا على يسوع المسيح وحده فقد رأوا كيف أنه هو الأعظم لأنه الفادى الشفيع !!

* * * *

الفصل العاشر

هو الأعظم لأنه ديان الأحياء والأموات

« لأننا لابد أننا جميعنا نظهر أمام كرسي المسيح لينال كل واحد ما كان بالجسد بحسب ما صنع خيراً كان أم شراً »

(٢ كو ٥ : ١٠)

« الرب يسوع المسيح العتيد أن يدين الأحياء والأموات »

(٢ تي ٤ :١)

« الذين سوف يعطون حساباً للذى هو على استعداد أن يدين الأحياء والأموات » (١ بط ٤ : ٥)

« ثم رأيت عرشاً عظيماً أبيض ... ورأيت الأموات صغاراً وكباراً أمام الله ... ودين الأموات مما هو مكتوب فى الأسفار بحسب اعمالهم» (رؤ ٢٠ :١٢,١٠)

* * * *

* نهاية المطاف فى تبيان عظمة المسيح :

هذا الفريد الذى ربط بين ناموس الأزل – الناموس الإلهى – والناموس التاريخى – ناموس الزمان الذى ارتبط بانشاء الخليقة ووجودها على مسرح الوجود بترتيب الأزمنة ، بعد أن رأينا فيه التجلى ووقفنا على أوصافه التى أهلته لإعلان ذات الله ، وكان ذلك ضرورة قصوى لتعرف الخليقة خالقها وتصل إلى رؤيته وإلا فقدت وجودها واستحالت عدماً ، هذا الذى بنفسه قام بفداء البشر بعد أن رتب أزمنة وجودهم والأدوار التى يقوم بها كل منهم ، وقدم لهم فى نعمته المجانية المطلقة « الخلاص » قام بتقديمه لكل الناس بلا مقابل سوى قبوله بالإيمان ... ولكن فرصة هذا التقديم محدودة فان نهايتها أمر لابد منه وهو مرتبط بمرحلتين وهما نهاية هذا الدهر ، ثم نهاية الزمان كله ، وحينئذ ستنكشف أهم مظاهر العظمة المظهر الذى ستتجلى فيه عظمة المسيح فى شكلها النهائى وذلك عند ظهوره وملكوته باعتباره « ديان الأحياء والأموات » قاضى المسكونة كلها « القاضى العادل الجليل المهيب الذى بعد أن رأيناه شفيعاً ، سيتحول إلى قاضى وديان – وهذا يأتى بنا إلى نهاية المطاف

لنتقابل فى خاتمة هذه التأملات على هذا السؤال الهام الخطير وهو : « من يستحق أن يكون الأعظم ؟ » والتى نرى من خلال الاجابة عليه هنا بانه لا ولن يوجد شخص آخر – أياً يكون – يستحق أن يكون الأعظم غير يسوع المسيح فليس لأحد عظمته ولا حتى معه !!

• **ديان الأحياء :**

أما عن كونه ديان الاحياء فذلك عند ظهوره وإعلان ملكوته فى نهاية هذا الدهر عندما تجتمع حينئذ جميع الشعوب أمامه فيميز بعضهم من بعض ... فيقيم الخراف عن يمينه والجداء عن اليسار (متى ٢٥ : ٤٦–٣١) هذه هى دينونة « الشعوب الحية » التى سيقرر مصيرها هذا الحاكم الأعلى وفقا لما يكون عليه موقفها من جهة قبوله أو رفضه ، وعندما تجتمع فى «هرمجدون » لتحاربه واذا به يقرر مصير السيادة العالمية فينتزعها منهم ويدخل الخراف التى آمنت به لملكوته أما الجداء فيقضى عليها بضربة الذوبان الأمر الذى من بعده تمضى إلى عذاب أبدى !! اما الذين يقبلونه « كالملك » – ملك كل الأرض – فيدخلهم إلى ملكه السعيد !!

أما الذين سيشتركون معه من شعبه السماوى فى حكم هذا الملكوت ، فانهم لابد أن يكونوا قد وقفوا أمام كرسيه (عرش قضائه) لمراجعة ما كانوا عليه فى حياتهم على الأرض فيوزع عليهم المكافآت ويدخل ضمنها أن يحكم كل منهم على عدد معين من المدن بحسب الأمانة التى كان عليها من قبل (لوقا ١٩) يؤكد ذلك ما جاء فى رومية ١٤ وكورنثوس الثانية ٥ من أنه لابد أن نقف جميعا أمام كرسى المسيح لينال كل واحد منا ما كان بالجسد بحسب ما صنع خيرا كان أم شراً ... والشر عندئذ سيتلاشى ولا يظهر إلا ما يثبت أنه خير . وسيتم ذلك بمراجعة دقيقة ، ولاشك أن المنظر الذى أمامنا هنا رهيب يقودنا إلى حياة التدقيق فنحاسب أنفسنا قبل مواجهته !! وتتضح عظمة « المسيح » بانه قد ورد اسمه مرتبطا بهذا الاجراء ، كما ورد اسم «الله» مرادفا له ، مما يؤكد فى هذا المشهد أن الذى سيقوم بدينونة الاحياء ، سواء فى ذلك « الشعوب الحية » أو « المؤمنين المختطفين أحياء » وهو المسيح ، ليس هو آخر غير الله إذ أن الوحى يسميه هنا «الله»

ونرى هنا عدة حقائق على غاية من الأهمية :–

أولاً : ضرورة تقديم الحساب الشخصى أمام هذا القاضى الجليل

وهذا واضح من القول : « لأن كل واحد سيعطى عن نفسه حساباً » والحساب هنا ليس عن غيره بل عن نفسه ، وهذا يمنعنا عن إدانة الآخرين لأنه سوف لا يعطون حساباً عن أنفسهم لنا ونحن سوف لا نعطى حسابا عنهم ، مهما كانوا وأيا كان ما يفعلونه فنحن وهم سنعطى حسابا لسيدنا وعلى كل منا نفس الالتزام بان يمتحن كل منا عمله ويراجع حساباته ويفحص نفسه ، فان هذا لن يدعه يفكر فى إدانه الآخرين أو احتقارهم لأن الحكم هو للمسيح وحده !! فويل لمن يتجرأ ويجعل من نفسه حاكماً أو قاضياً لغيره ...

ثانيا : لأن عمل كل واحد سيصير ظاهراً عند امتحانه بنظرات هذا القاضى الجليل الفاحصة : هذا يبين خطورة ورهبة الظهور أمام كرسى المسيح حينئذ تنكشف خطايا الظلام وتظهر آراء القلوب وهنا النور الالهى سيظهرنا جميعا كما نحن – هذا هو أروع مظهر للعدالة بين المؤمنين لأن البعض منهم سيكونون خجالى لأن كثيرين ممن حكموا عليهم من قبل سينالون المدح أمام عرش المحاسبة !!

ثالثا : أن هذا الاظهار لابد منه لينال كل واحد ما صنع بالجسد ، وحينئذ سيأخذ الاجرة من لا يحترق عملهم : هذا الظهور إذا ليس للمحاسبة فقط ولا هو للفحص بل لما وراءهما وهو نوال المجازاة – ومع أن الأعمال الصالحة هى ثمر نعمته فينا إلا أنه يحسبها لنا لأننا نقوم بها بارادتنا ... ومع أن الخلاص بالنعمة ولكن المكافئة يمكن ضياعها بالنسبة لمن يخلصون كما بنار !!

لذلك فانه مع عدم الخوف من الدينونة بسبب النعمة ، إلا اننا يجب ان نحترص لأن المكافئة فى الحياة الآتية سوف تكون على أساس أعمالنا مما يجعلنا نسعى لكى نجعل حياتنا شيئاً ضخماً ومثيراً فى النهاية !!

****

* **ديان الاموات :**

وأخيراً قد أتينا إلى عرش الدينونة الأخيرة فى اليوم الأخير من الزمان – وهو العرش الذى سيقف أمامه الخطاة ليدانوا ويسمعوا الحكم النهائى الذى يحدد مصيرهم وهو مصير أبدى لانهائى مخيف :

وهنا لابد من تقرير هذه الحقيقة أن القضاء كله لله ولكن نظراً لاستحالة رؤيته أو الوقوف أمامه بالنسبة لصورته الجوهرية فقد أوكل الدينونة كلها للابن – وهو الجالس معه على عرش الألوهية

فى كيان واحد هو جوهر اللاهوت المطلق .. كما أنه المتجلى فى عرش التجلى ، والجالس الآن على عرش النعمة ، وهو الذى سيظهر قريباً على كرسى مجده أى عرش ملكوته الألفى ، وقبيل ذلك وجدناه جالسا على عرش المحاسبة لمحاسبة المؤمنين ، وفى نهاية الملك الألفى سيراه الخلق أجمعين على العرش العظيم الأبيض الامر الذى بسببه ستنحل الارض والسموات المنظورتين ليحل محلهما سموات جديدة وأرض جديدة وحينئذ يُرى جالساً على عرش الابدية « عرش الله والخروف » وهو عند جلوسه على العرش العظيم الأبيض سيجلس عليه بصفة « الله ديان الجميع » :

هذا القاضى العادل الجليل الذى سيقف أمامه كل الخطاة والظالمين حين يقوم جميع الأموات بأمره ليواجهوا الحكم الاخير – تُرى ماذا يكون عرشه هذا وماذا تكون أوصافه !؟

ومن يكون هو هذا الجالس على هذا العرش !؟

أما عن الجالس عليه فهو ليس سوى يسوع المسيح ابن الله وذلك لما يأتى :-

١- أن عدم ذكر اسمه إنما لأنه لايقوم بعمل الدينونة هذا مستقلاً عن أقنومى الآب والروح القدس فضلا عن أنه مظهر اللاهوت المطلق الذى يتجلى فيه وتتم عن طريقه سائر معاملات الله مع البشر بما فى ذلك المقابلة والحساب .

٢- لقد أعلن الوحى إحالة الدينونة للابن بقوله : «لأن الأب لايدين أحداً بل قد أعطى كل الدينونة للابن»... وأعطاه سلطاناً أن يدين أيضاً لأنه ابن الانسان» (يو ٥ :٢٧,٢٢) **وذلك لأنه هو الذى قام بتسديد ديون البشرية كلها ، ومن حقه الآن أن يطالب ويدين من لم يقبلوا عمله هذا ...**

٣- يتحدث عنه بولس الرسول فى (أعمال ١٧ :٣١) بأنه هو الذى عينه الله ليدين المسكونه بالعدل ويذكر عنه فيما بعد بأنه هو العتيد أن يدين الاحياء والاموات (٢ تى ٤ :١) ويؤكد بطرس الرسول ذلك بقوله : « الذين سوف يعطون حسابا للذى هو على استعداد أن يدين الأحياء والأموات (١بط ٤ :٥)

وقد سبق أن رأينا مكان دينونة الأحياء عندما يجلس على كرسى مجده قبيل استعلان ملكوته الألفى مباشرة ، وأما عن دينونة الاموات فهى فى الحالة التى أمامنا وذلك قبيل إعلان الملكوت الأبدى مباشرة !!

أما عن أوصاف هذا العرش فنراها على الوجه الآتى :-

١- انه عرش عظيم لأنه لا تقارن به العروش الاخرى التى ستكون من حوله : والتى سيجلس عليها القديسون كمستشارين - تلك العروش التى رآها دانيال تعد ، ورآها يوحنا تشغل فيجلس عليها قديسو كل العصور الغالبون الذين تتكون منهم العروس واصدقاء العريس أى قديسى العهد القديم وشهداء الضيقة العظيمة ، وقد أعطى لهم الحكم وهم الآن يجلسون ممجدين حول عرش القضاء الاخير أثناء ادانة العالم ومحاكمة الملائكة !!

٢- أنه عرش عظيم لأنه ملأ كل الفضاء بعد هروب السماء والأرض من وجه الجالس عليه : لقد حدث الهروب لهما من وجهه أى من حضرته أو من مجرد ظهوره على هذا العرش ، لأن رهبته عندئذ ستستولى على الأرض والسماء فعبّرت كل منهما عن هذه الرهبة بالهروب من أمامه .. والهروب معنوى هنا أى تغيير حالتها الأولى إلى حالة أخرى تتناسب مع قداسة القاضى العادل الجالس على العرش العظيم الابيض .. **ومن هنا فان وصف هذا العرش بالعظيم إنما هو راجع للعظيم الجالس عليه - والذى رأينا بأنه لا يوجد أعظم منه !!**

وهذا الهروب المذكور هنا يبين عظمته المهولة جداً حتى ان السماء والارض المنظورتين لم تستطيعا الثبات أمام هذه العظمة - ولابد أن يكون هذا العرش أعلى من الارض بل يرى البعض بانه سيكون أعلى من الكواكب مرتين - ولهذا السبب ستسقط المسكونة الجميلة فى اضطراب وحريق عظيم لأن هذا هو وقت انحلال العناصر واحتراقها وذلك لكى يزيل الله كل شر وينهى طغيان الأشرار من عالمه إلى الابد !!

٣- وهو عظيم بسبب احتشاد جميع الأجيال أمام الديان - أنه كم هائل يجمع كل الخطاة كل منهم واقف ليسمع حكم مصيره : ومن بعد هروب السماء والارض لن يجد هؤلاء سبيلا للهروب بل سيقفون فى الفضاء مثبتين بقدرة الله أمام الديان - يا لهول الموقف ويا لرهبته !!

إذ اننا نرى هنا اجتماع العالم كله من عهد آدم إلى آخر مولود من ذريته : **الأبرار يجلسون كمستشارين للقاضى الأعلى والاشرار يقفون أمام هذا العرش** إذ تجمعهم قدرة الله من الصغير إلى الكبير ومن الحقير إلى الأمير ... كما سيكون ضمن هذا الحشد الملوك والعظماء والجبابرة ، وها هم يقفون أمام العرش

صامتين أمام نوره الفاحص ... لقد جاءت أرواحهم من الهاوية حيث كانت هناك لأجيال عديدة مرافقة بخطاياهم وذكريات الفرص الضائعة ، ومن القبور والبحار أتت اجسادهم التى اقيمت الآن بقوة هذا القدير – الذى معه مفاتيح الموت والهاوية – من ميادين القتال وأعماق السجون ومن شتى المدافن والاضرحة تأتى هذه الاجساد وهى تقام بغير موت وتتحد بأرواحهم للمحاكمة الاخيرة .. فان قيل بان ذلك يعتبر من المستحيلات ، فاننا نجيب برد بولس عليه : « لماذا يعد عندكم أمراً لا يصدق إن كان الله يقيم الموتى » (أع٢٦ :٨)

لا غرابة من عظمة هذا العرش أن عدد المائلين للمحاكمة لا يحصى إذ هو من وقت إنشاء العالم إلى نهاية الزمن كله !! والأرض يقطنها الآن حوالى سته مليارات نسمة فكم يكون عدد الاجيال التى تعاقبت على مدى سبعة آلاف سنة تقريباً .. !!

٤– انه عظيم بسبب بياضة الناصع : وهذا يعبر عن عدالته التامة وبذلك عن خلو الدينونة من الظلم – ومع إعلان النزاهة التامة ليس هناك تطهير بعد– والبياض دليل على أن الأحكام التى تصدر من هذا العرش خالية من الجور والتعسف وستكون بمنتهى الدقة : سيتلى الحكم بحزن وبحزم أيضاً وستكون صيغته هكذا :« أغرب عنى يا هالك وانضم إلى الملائكة الهالكين وليكن سجنهم مقرك الأبدى – هذا هو الموت الثانى – ليس هو فناء بل انفصال أبدى عن الله !!»

٥– أخيراً هو عظيم بسبب جلال وهيبة الديان : الذى لم يستطع يوحنا أن يصفه إلا بالقول أن السماء والارض هربتا من وجهه – أنه إبن الإنسان الذى جاء قبلا ليطلب ويخلص ما قد هلك – هو الذى رآه العالم لآخر مرة على صليب العار ، وأما الآن فقد اكتسى بالجلال الذى يليق بشرف عمله كالديان !!

أن اليوم الآن كيفما كان مقداره يوم مرعب تتم فيه المحاسبة للاشرار حسب ما هو مكتوب فى سجل كل واحد منهم على أساس النور الذى يكون قد وصله ووفقا لعمله .. ومن المعلوم أن من يرفضون الخلاص يرغبون فى أن يقبلهم الله بموجب أعمالهم ، ولكن الواقع أن الاعمال لن تكون اساس الخلاص بل هى أساس الدينونة ...

****

هذا هو المشهد المحزن بلا حد وهو فى الواقع آخر ما فى الدراما البشرية

بل آخر حلقة منها على مسرح الزمان إذ هو آخر صفحة من التاريخ البشرى : هنا ينتهى الزمان وتبدأ الأبدية – وإنى أتوقف عند هذا الموضوع الخطير لرهبته لولا إخلاصى لسيدى ومحبتى لبنى البشر لما وجدت نفسى مُلزماً بالتكلم عنه ...

والآن أمام هذه الحقائق المرعبة التى يعرضها علينا الوحى : ماذا أقول عن اولئك الذين يعرفونها ، ومع ذلك يصرون على طرقهم التى ستنتهى بهم إلى هذا المصير المؤلم ، الذى بإزائه يتوقف كلامى لاننى إذا لم استطع أن أوقف الاشرار لأعقلهم ، فإن الكلمات تبدو كالرماد فى فمى إزاء فزع الموقف الذى ينتظرهم – فيا من لازلتم غير مؤمنين بل ومستهزئين ألا تعلمون أن الهاوية وسعت فاها لتبتلع !؟ فكيف تهربون من دينونة جهنم !؟ وأنتم يا من تقفون على أبواب الملكوت دون أن تعزموا على الدخول وتؤجلون ذلك فكيف تنجون من الغضب الآتى ! ؟

أنا لا أعرف ولا أريد أن أعرف ولا اطلب من الله أن يعرفنى ماذا تكون حقيقة الموقف هنا ، ولا ما هى بحيرة النار التى تعقب صدور الحكم بطرح الأشرار فيها– وبازاء ذلك من يستطيع أن يقف أمام الديان عند جلوسه على هذا العرش متسربلاً بالنور كرداء ومحاطا بالمجد والعظمة ، وعيناه كلهيب نار وصوته كصوت شلالات مياه ... لقد تغير المظهر بالنسبة له ، فلم يعد هو مظهر الوداعة السابق حين استهزأ الاشرار بمحبته طويلا ورفضوا نعمته أما الآن فالموقف قد تغير وأنه من أكبر المآسى رهبة هذا الوقوف أما العرش لمن يتجاهلونه !!

ليت الله يعطينا تقديراً لهذه الحقائق الخطيرة – وليت كل نفس تحسم أمرها الآن فتهرب من الدينونة القادمة !! ليت الله فى رحمته لا يدع أحدا منا يكون مصيره هكذا – ومن وجه آخر الا يعلن هذا المشهد أمام الملأ – أى الخليقة كلها – أن يسوع المسيح هو الديان ، وأنه لذلك يستحق أن يكون الأعظم ، بعد أن قدمنا فى هذه التأملات المتتابعة لماذا هو الأعظم – وكيف يتحتم إزاء ما ادركناه عن صفاته وأعماله أنه الأعظم بالاطلاق بلا منازع أو منافس !!

* * * *

اللهم يا من أعطيت الشهادة – فى إنجيلك – لابنك الوحيد يسوع المسيح وجعلتها مقترنة بنوال الحياة الأبدية لمن يقبلونها ، أعطى فى رحمتك لكل قارىء

لصفحات هذا الكتاب أن يختم على صدقها ويتحقق من عظمة ابنك الوحيد التى هى عظمتك ذاتها فيه لضمان سلامة النفوس وخلاصها الأبدى تحميداً لإسمك وتمجيداً لجلاله فيمن يقبلون هذه الشهادة – شهادة حق امتدت فى الزمان إلى جيل النهاية هذا لتشهد له بها تبرئة لمن يريدون التبرؤ من كفر وإلحاد وإرتداد يستشرى فى كل مكان ولن يبرأ منه سوى الذين يؤمنون بأن يسوع المسيح هو الأعظم!!

وهذا ما سيتم الإعتراف به بالأمر الإلهى المباشر ولكنه بالنسبة للرافضين له الان سيكون اعتراف بعد أن يكون عصر النعمة قد انتهى وجاء وقت العقاب. قد انتهى وجاء وقت العقاب. أما الإعتراف الأجدى والجور الذى يمنح اصحابه متعة دائمة وسعادة تامة فهو الإعتراف الإيمانى به من اتباعه الحقيقيين الذين فى وسعهم أن يخاطبونه الآن بتأكد صادق قائلين له: « **بالحقيقة انت هو الأعظم** »

تم إعداد هذا الكتاب وتقديمه للطباعة

فى الثانى والعشرين من شهر سبتمبر ١٩٩٢

رقم الإيداع ٤١٠٢ / ٩٣
I. S. B. N.
977-00-4767-8

دار الثقافة العربية للطباعة
٢٣ شارع الظاهر – القاهرة ت: ٩٠٦٧٠٦

هذا الكتاب

« من يستحق أن يكون الأعظم !؟ »

هو أعلى قمة فى علم مقارنة الأديان فيما يختص برأيها فى « من يكون الأعظم »! أيا كانت الإدعاءات فى هذا المجال ، وتنوع مقاييس العظمة ، وإمكانية وقوع أخطاء فى التقدير ، فإننا فى ضوء الإعلان المتكامل عن « يسوع المسيح » نجد أن لا وجه للمقارنة بينه وبين سواه من مشاهير الرجال من كافة الشعوب والأمم سواء كانوا ساسة أو قادة معارك أو فلاسفة وعلماء أو رؤساء ومؤسسى أديان ، إذ أن عظمته فى نهاية المطاف هى المتفوقة التى جاوزت حد كل تصور مبنية على واقع يختص به ويقبله العقل ويستسيغه المنطق ..!! وذلك رغم كل السهام التى أفرغتها ضده الفرق الضالة – كشهود يهوه – ومدارس النقد العصرى والإعلانات الملتوية والقاصرة التى شاعت عنه وذلك داخل المسيحية وخارجها على مجرى التاريخ وخاصة فى عصرنا الحاضر ...

وإزاء هذا كله كان لابد من التصدى لهذه التيارات الغريبة بأنواعها والتى تلاطم إيمان المسيحيين فيه وقد تصل إلى حد السخرية والإسفاف .

وقد احتوى هذا الكتاب النادر – الأول من نوعه فى اللغة العربية – فى فصول عشرة كل منها يقدم حديثه الخاص عن هذه الشخصية على التوالى وهى معاً شهادة ناطقة عن جوانب عظمته الفريدة – وهذه الفصول هى:

هو الأعظم لأنه بلا مثيل – هو الأعظم لأنه فيه ظهر التجلى الإلهى – هو الأعظم لأنه صورة الله غير المنظور – هو الأعظم لأنه بكر كل خليقة – هو الأعظم لأنه خالق الكل – هو الأعظم لأنه كلمة الله الذاتية – هو الأعظم لأنه ابن الله الوحيد – هو الأعظم لأنه أعظم رسول – هو الأعظم لأنه الفادى الشفيع – هو الأعظم لأنه ديان الأحياء والأموات .

وليس بعد ذلك من مزيد ، وقد راعينا تقديمه بأقل ثمن مع أن قيمته لا توازيها فضة ولا ذهب ، حتى يمكن أن يكون فى متناول الجميع إسهاماً منا فى الانتفاع به لكل من أراد الوقوف على محجة الصواب عنه !!

الثمن ٢ جنيه